دارة الملك عبدالعزيز

الملك ابن سعود
والجزيرة العربية الناهضة

تأليف

د. فان در مولين

الوزير المفوض لهولندا في المملكة العربية السعودية

ترجمه

ويسي آي. سي

علق عليه

د. فهد بن عبدالله السماري

صدر بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

(١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)



الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مولين، فان در

الملك ابن سعود والجزيرة العربية الناهضة / ترجمة ويسي أي. سي.- الرياض.

١٧٦ ص ؛ ١٧×٢٤ سم.

ردمك: ٧-١٤-٦٩٣-٩٩٦٠

١-عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، ملك السعودية ٢- السعودية - تاريخ -

أ- أي. ي. سي، ويسي (مترجم) ب- العنوان.

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٩/٢٤٧٤

رقم الإيداع:١٩/٢٤٧٤

ردمك:٧-١٤-٦٩٣-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم



جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (رحمه الله)

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن الإسلام أكبر نعمة أنعمها الله على الأمة، واستحضار هذه الحقيقة في كل عمل مخلص هو قمة الوعي بها، ومن ثم الدفاع عن مقوماتها . ولقد أدرك الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود - رحمه الله - عظمة هذه النعمة الإلهية، وعمل على تمثلها في نفسه ، فجعل الإسلام نبراساً له في كل أعماله، وحقق أهدافه السامية المتمثلة في التمسك بالعقيدة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عنها ونشر الأمن، وتأسيس مجتمع مُوحَّد يسوده الرخاء والاستقرار .

ولقد كان استرداد الملك عبدالعزيز الرياض في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م هو اللبنة الأولى في تأسيس المملكة العربية السعودية، في حين تعود جذور هذا التأسيس إلى مائتين واثنين وستين عاماً، عندما تم اللقاء التاريخي بين الإمام محمد ابن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب-رحمهما الله-عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، فقامت بذلك الدولة السعودية الأولى على أساس الالتزام بمبادئ العقيدة الإسلامية، ثم جاءت الدولة السعودية الثانية التي سارت على الأسس والمبادئ ذاتها.

وعندما بدأ الملك عبدالعزيز في مشروع البناء الحضاري لدولة قوية الأركان، كان يضع نصب عينيه السير على منهج آبائه، فأسس دولة حديثة قوية، استطاعت أن تنشر الأمن في أرجائها المترامية الأطراف، وأن تحفظ حقوق الرعية، بفضل التمسك بكتاب الله - عز وجل - وبسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -. وامتد عطاؤها إلى معظم أرجاء العالمين العربي والإسلامي، وكان لها أثر بارز في السياسة الدولية بوجه عام ، بسبب مواقفها العادلة والثابتة، وسعيها إلى السلام العالمي المبني على تحقيق العدل بين شعوب العالم .

وجاءت عهود بنيه من بعده : سعود وفيصل وخالد - رحمهم الله -، وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - امتداداً لذلك المنهج القويم.

وفي الخامس من شهر شوال عام ١٤١٩هـ / ٢٣ يناير ١٩٩٩م يشهد التاريخ مرور مائة عام على دخول الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الرياض، وانطلاق تأسيس المملكة العربية السعودية، عبر جهود متواصلة من الكفاح والبناء، نقلت هذا الوطن وأبناءه من حال إلى حال. وصنعت بتوفيق الله تعالى وحدة حقيقية على أساس الإسلام، ملأت القلوب إيماناً وولاءً، وجسدت معاني التلاحم التاريخي بين الشعب وقيادته في مسيرة تاريخية .

إن استحضار أحداث ذلك اليوم في نفوس أبناء المملكة عونٌ على شكر الله على نعمه، وتذكير بأن هذه البلاد - التي قامت فيها الدعوة والدولة معاً - لا تزال وفية لعهد أجيال التأسيس والتوحيد، مستمدة منهجها في الحياة من كتاب الله وسنة نبيه.

ومن أجل رصد الجهود المباركة التي قام بها المؤسس - رحمه الله- وأبناؤه من بعده ؛ عرفاناً بفضلهم ووفاء لحقهم ؛ وإيضاحاً لمنهجهم القويم، فقد قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد العديد من الدراسات والإصدارات التي تتناول بعض تلك الجهود، في منجزات علمية موثقة؛ لتدلل بذلك على ما أسبغه الله - عز وجل - على هذه البلاد وأهلها، من تقدم علمي ، ومن نهضة زاهرة . وهذا الكتاب ما هو إلا جزء من سلسلة حح مجموعة المكتبة المئوية حح التي تقوم دارة الملك عبدالعزيز بإصدارها بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وهي سلسلة علمية تهدف إلى خدمة تاريخ هذه البلاد ومصادره المتعددة .

وفي الختام أسأل الله القدير أن يديم علينا نعمه ، وأن يوزعنا شكرها ، والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سلمان بن عبدالعزيز

رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز

شكر وتقدير

لا بدّ من توجيه كلمتي شكر وتقدير خاصتين لبعض الكتاب الذين ألهمتني مؤلفاتهم وأرشدتني إلى معرفة (ابن سعود)، بلده وشعبه والحركة السلفية.

لا شيء ينقص من قدر أحد هؤلاء الكتاب إذا ذكرت مؤلفات (فيلبي) وخاصة كتابه «اليوبيل الفضي» (Arabian Jubilee) بوصفها مصدراً رئيساً للمعلومات التاريخية والشخصية لحياة (ابن سعود)؛ لأن لقاء (فيلبي) و (عبدالعزيز بن سعود) ، الذي كان شاباً في بداية الحرب العالمية الأولى، أثر في حياة (فيلبي) وأعطاه اتجاهاً محدداً، وجعله يعرف «صديق حياته» أكثر من أي كاتب آخر. وبسبب ميول (فيلبي) العلمية، والفرصة التي وجدها في صداقة (ابن سعود)، والتي دامت حوالي ٤٠ سنة قضى معظمها بقربه ، أصبحت مؤلفاته المصدر الأساس للحصول على معلومات عن الوقائع والأحداث التي ميزت حياة مؤسس المملكة العربية السعودية.

صدر كتابه «اليوبيل الفضي» (Arabian Jubilee) نهاية عام ١٩٥٢م، واطلعت عليه بعد الانتهاء من تأليف كتابي هذا؛ ولذلك لم أستفد من ذلك العمل التاريخي الأساس عند كتابة دراستي هذه المتعلقة بالحركة السلفية الثانية ورئيسها. ولكني أفدت من مؤلفات (فيلبي) العديدة الأخرى ، ومن ذكرياتنا المثمرة معاً في بلد (ابن سعود)، والمناقشات التي دارت بينه وبين آخرين. وعلى الرغم من وجود اختلافات أساسية عميقة بيننا تتصل بآرائنا في الحياة والمسائل الكثيرة الخاصة (بالمملكة العربية السعودية) والإسلام، فكلانا يشعر بعطف عميق (لابن سعود)، العربي الأعظم في هذا الزمان.

ولا بدّ أن نذكر بعد (فيلبي) (أمين الريحاني) ، الشاعر والكاتب والرحالة الذي توفي - للأسف- وهو في ريعان شبابه. فقد كان عالماً (بابن سعود)، وأدهش الغرب المهتم (بجزيرة العرب) بكتابه «تاريخ نجد الحديث وملحقاته» (of Arabia: His People and his Land

Ibn Saud) الذي صدر عام ١٩٢٨م. وفي الحقيقة هذا الكتاب أسبق مؤلفات (الريحاني) ، وقد عرّف الوطن العربي بكتابه الكبير « ملوك العرب» الذي كان الأساس لكتبه الثلاثة الصادرة باللغة الإنجليزية فيما بعد، وكان الكتاب عن (ابن سعود) أولها صدوراً.

وهنالك فرق كبير بين (فيلبي) - البريطاني الذي أصبح مسلماً - (والريحاني) - العربي النصراني الذي أصبح أمريكياً - وعرف بمجد تاريخ العرب في مكتبات العالم الجديد، وها هو يعود إلى وطنه العربي ليخدم شعبه شاعراً وكاتباً ولغوياً مزدوجاً، وباحثاً عن مناطق الوطن العربي التي نسيها العالم.

و(الريحاني) في كتابه لا يقدّم مادة علمية، ولكنه يرسم إنساناً حياً. فالإنسان الذي يتشرف بمعرفة (ابن سعود) سوف يقول: كان (ابن سعود) مثلما رسمه (أمين)، وكانت بيئته كما صورها (الريحاني)، وكذلك حياته.

و(الريحاني) يكتب بأسلوب مغاير للأساليب الجدية الثقيلة لأولئك الذين طرحوا الضحك واعتبروا أنفسهم جادين وصارمين. إن (ابن سعود) كان يضحك كثيراً، وكان حكيماً ومتسامحاً ، ولذلك كان بارزاً فوق محيطه. وهكذا صوّره (أمين).

وقد عرّفنا البروفيسور (سنوك هورخرونية) - نحن طلبته - (بأمين الريحاني) وكتابه «ملوك العرب» قبل عدة سنوات من مقابلتنا (للريحاني) شخصياً في الوطن العربي، وتمتعنا بصداقته الكريمة ، حين قال البروفيسور (سنوك): «إن (الريحاني) بصفته شرقياً، فهم (ابن سعود) فهماً أفضل من (فيلبي) البريطاني، ولذلك كان باستطاعته وصف الملك بنبرة حقيقية وبشكل دقيق».

وسوى هذين المؤلفين المسجلين لحياة (ابن سعود) واللذين يصفانه باعتبارهما صديقين شخصيين، نجد في الأدب المكتوب عنه كُتّاباً يكتبون بلغات غربية، وتنقصهم العلاقة المباشرة مع الرجل الذي يصفونه.

ويُستثنى من هؤلاء الكتّاب (هارولد آرمسترونج) الذي اختار (ابن سعود) موضوعاً لدراسته، بعد أن اتضح من كتابه عن سيرة (كمال باشا أتاتورك) تحت عنوان «الذئب الأغبر» أنه كان مؤرخاً ماهراً جداً. سافر (آرمسترونج) إلى جدة قبل تأليف كتابه (Lord of Arabia) (سيد الجزيرة العربية)، ليتذوق جو (جزيرة العرب)، وكان له شرف استقبال الملك له هناك. فاستفاد من هذه الفترة القصيرة إلى أقصى حد ، حيث درس سلفاً موضوع كتابه بعمق. ولكن كتابه (Lord of Arabia) (سيد الجزيرة العربية) تنقصه الروح الخفيفة والظريفة للشرقي (أمين الريحاني)، وإن كانت صياغة (آرمسترونج) تتناسب مع جو الجدّ والوقار المسيطرين على المجتمع السلفي في إطار جدية وطنهم الصحراوي. وقد تتبعنا العرض التاريخي الواضح المخلص الذي أعطاه (آرمسترونج) للأحداث أثناء فترة نشوء الحركة السلفية الثانية، في الفصول السالفة لعلاقتنا الشخصية معها.

وفي النهاية لا بدّ من ذكر أستاذنا، المستشرق البروفيسور الدكتور (سي. سنوك هورخرونية) بتقدير واحترام، لأننا بسبب تلمذتنا عليه استطعنا الحياة مع الإنسان العربي في وطنه بفهم وإدراك. كما التقينا (بابن سعود) بآمال عالية، وقد تغيرت هذه الآمال إلى إعجاب به، ثم تحولت إلى تعاطف شديد معه.

ويُعد كتاب البروفيسور الدكتور (سي. سنوك هورخرونية) عن (مكة) المقدسة، المُؤلَف العلمي الأنموذج عن مدينة الإسلام المقدسة. ويتضح من هذا الكتاب قدر اهتمام (سنوك) (بابن سعود) وسياسته النافعة في (جزيرة العرب). والسلسلة الطويلة من المواد التي نشرها في الصحف الهولندية، تعكس منظراً دقيقاً وأحياناً مجنّحاً وسامياً عن الوطن العربي (لابن سعود). وإذا أمكن نشر هذه المواد مرة أخرى فإنها ستكون عاملاً مساعداً للكتابة عن تاريخ الوطن العربي المعاصر في مرحلة انتقاله.

إيفدي، د. فان در مولين

المقدّمة

دخلت (جزيرة العرب) مرحلة جديدة من تاريخها الطويل . فبعد أن ظلت بلا تقدم خلال عدة قرون، بدت فعلاً جزيرة يحيطها عالم هائج، بينما هي لم تأخذ بعد بالتغيرات السريعة التي حدثت في العالم من حولها، ولا تريد أن تكون جزءاً منه. وقد حمتها طبيعتها الجغرافية بحواجز كثيرة ضد دخول الأجانب، كما كان لسكانها مقاومة روحية ضد كل جديد وغير عربي؛ نتيجة لانعزال نظامهم القبلي وتمسكهم الواثق والفخور بدينهم، فاعتبروا أنفسهم، بوصفهم عرباً ومسلمين، شعباً قدر لهم الله أن يكونوا جيراناً لبيته في (مكة)، واستحقوا بركاته باتباع الدعوة إلى الصراط المستقيم. وبذلك أعطوا معناهم للعالم، ومازالوا يعطون هذا المعنى من جديد.

وبسبب الصخور البحرية قِبَل سواحل (الجزيرة العربية)، وصحاريها وحرارتها وفقرها، نشأت منعزلة عن العالم ، وعن تطورات الأحداث الجادة المهمة. وكان هذا البلد غير معروف، ومغلقاً أمام الغربي وغير المسلم من الشرق. وكان آخر البلدان التي لم تكتشف بعد.

حافظت (جزيرة العرب) على انعزالها الصارم ،وحملت فقرها المادي في وعي ثروتها الروحية، ولم ترغب في أي شيء من خارجها؛ بل كان باستطاعتها تقديم شيء إلى هذا العالم الضال. وكانت الجزيرة صاحبة وحي الله الأخير والكامل، الذي أنزله الله بلسان العرب، وجعله مرتبطاً بالوطن العربي إلى الأبد. فأصبحت هذه البلاد مكان الحج للمؤمنين، وبلد الخير. وألزم كل مسلم بالتوجه إليها أينما كان مكانه في العالم.

وعلى الرغم من ذلك تعرّف العالم تدريجياً على (جزيرة العرب) غير المعروفة، والفخورة والأبية. وهي لم تفتح أبوابها، ولكن بعض الناس دخلوها وبدؤوا بكشف مواقع التاريخ، وبذلك عَمِلوا على فتح الجزيرة للخارج. ولكن عملية الفتح الفعلي كانت مطلوبة أيضاً من الجزيرة نفسها. واحتاج الشعب إلى رئيس يكسب ثقته، إلى رجل يحرره من فرقته وحروبه، رجل ذي

شجاعة لكسر الحواجز المانعة من الاتصال بالخارج. وكان من المفروض أن يتطور هذا الرجل من رئيس بدوي ذي عادات بالية، إلى رئيس للمسلمين، الذي تُعتبر كلمته مهمة في العالم الإسلامي، وله مكانته بين رؤساء العالم.

حَصلت جزيرة العرب على رئيسها لعصر جديد، وكان يحلم هو وشعبه بنهضة دينية داخل الوطن العربي تعيد المجد القديم والازدهار تلقائياً. ولكن الوضع لم يكن على ما يشتهي ويأمل.

إنّ الرجل الذي نتناول سيرته في هذا الكتاب إنسان كبير، ولد رئيساً بدوياً، ولم تكن الرئاسة هدفه ولكنه لفت نظر كثير من الناس، في كل العالم، إليه وإلى وطنه وإلى دينه. كيف يمكن تفسير ذلك؟ هل وجُدت سمة استثنائية في كل من العوامل الثلاثة: القائد ووطنه ودينه، إلى حد أنها لفتت نظر العالم الذي كان منهمكاً في همومه اللانهائية ومحتكاً بضوضاء متشائمة إلى ما حدث في (جزيرة العرب)؟ نعم. بدا أن (ابن سعود) رجل لا يولد مثيله إلاّ مرة واحدة فقط خلال عدة قرون . فهو يعتبر من كبار الشخصيات، نظراً لما أنجزه في (جزيرة العرب) حيث بنى بها مملكته الكبيرة (المملكة العربية السعودية). كذلك حقق بها إنجازه بصفته رئيساً دينياً لشعبه على ضوء ما خطه أعظم العرب، رسول مكة، تحت دعوة الإصلاح، والعودة إلى مصدر الحقيقة والهدى الذي نشأ قبل ١٣٠٠ عام في هذا البلد. كانت هذه السمة عاملاً جديداً في عالمنا القديم. كان هذا التطور غير متوقع حتى في (جزيرة العرب). وعادة تظهر الشخصيات الكبيرة في تاريخ العالم متى ما تغير هذا التاريخ أو بدأت فترة جديدة.

كان (ابن سعود) يقف أمام بداية توقعات جديدة (لجزيرة العرب). وكانت الجزيرة من قبل منشأ الحركات الروحية الكبيرة. وانقضى أكثر من ألف سنة بعد مغادرة العرب جزيرتهم لنشر دين الله. حققوا تلك المعجزة التي لن تكرر مرة أخرى في التاريخ. غيروا العالم، بذلوا جهوداً أكبر من قدراتهم، ثم انطفأت نار الرئاسة، وانسحبوا إلى صحاريهم التي خرجوا منها مقتنعين وفائزين، وأنهم لا يمكن مواجهتهم. لم يستطع شعب أن يتتبعهم، نظراً لانعزال بلدهم وحرارته وجفافه وفقره. وظلت (جزيرة العرب) ساكنة لفترة تزيد على ألف سنة،

حتى نشبت حربان عالميتان، وتنافست البلدان المشاركة فيهما للسيطرة على (جزيرة العرب)؛ لأنها تربط بين القارات، وذلك هدف إستراتيجي كبير، فالدول لم تطق سكون الجزيرة ولم تؤثر أي حرب فيها، ولكن استطاعت حركة واحدة فقط أن تؤثر في هذا البلد الناشئ المميز بالإيمان بإله واحد، استهدفت إصلاح الدين وتجديده. إن هذا الواقع الجديد يوقظ (جزيرة العرب) في مركزها، ومع أن الحروب العالمية حولها فإنها لم تكن مجهولة، ولكنها ذات قوة بفضل الدين، الذي يفتح النظر إلى سعادة موجودة في الآخرة فقط .

لم يَثُرْ (ابن سعود) ليصبح مجرد أمل لشعبه، بل كانت له مكانته في التاريخ العالمي في وسط الأزمة السياسية والروحية الكبرى التي واجهها الإسلام [1]، وأتيحت الفرصة له للمشاركة فيها. وسوف تجري محاولة تقدير تلك الفرصة أو رؤيتها في حينها وفهمها باعتبارها مسؤولية حملها الله إياه ، بحيث اعتبر نفسه رئيساً لشعبه العربي. ولا بد من هذا التساؤل عند محاولة تقويم سيرته، وفي الإطار الخلفي وطنه العربي كمركز لعالم إسلامي في أزمة. وسوف يكون واضحاً للقارئ أن هدفنا من هذا الكتاب ليس كتابة قصيدة موحية عن رجل كبير، يحيا في مكان بعيد (بجزيرة العرب) أثناء الفترة الرومانسية الماضية، ولكننا نحاول وصفه بأنه آخر رجل وجد فرصة ليؤدي دور البطل في بيئة إسلامية وعربية تقليدية باستخدام جميع الإمكانات المتوفرة له. كما أنه قَبِل تحمل المسؤولية نيابة عن أهل الجزيرة. وسوف نراه رجلاً حقق الكثير، ولكن - أيضاً - ربما فاته تحقيق ما هو أكثر من ذلك[2].

دُعِيَ (ابن سعود) إلى رئاسة ثلاثية كان يعرفها التاريخ القديم فقط، رئاسة شملت كل ما يهُم الناس بالكامل ،سواء أكانت الرئاسة مؤقتة أم دائمة . علم (ابن سعود) أنه ميسرٌ من (الله) ليكون ملكاً لشعبه، وليكون رئيسهم الديني، وليُعيد رسالة دينية إلى المسلمين تهديهم إلى

(١) الإسلام لا يواجه أزمة وإنما هم المسلمون الذين كان بعضهم في تلك الفترة يعاني من ضعف في تطبيق أوامر الله وانحراف عن الطريق الصحيح.

(٢) الأكثر من ذلك في رأي المؤلف، هو أمر لا يمكن تحقيقه، لأنه يقصد أن الملك عبدالعزيز مطالب بتوحيد العرب والمسلمين جميعاً. وعلى الرغم من ذلك فإن الملك عبدالعزيز انتهج سياسة جادة نحو دعم القضايا العربية والإسلامية.

الصراط المستقيم الذي ضلوا عنه. عرف واجبه، في ضوء هذا الفهم، نتيجة لتأثير والده (عبدالرحمن آل سعود) فيه، الذي نتيجة لحياته الطويلة المتلئة بالصدمات ومعايشة الخلافات، حجب ثقته عن الناس ووضعها في الله فقط. كان إيمانه هو الواقع الوحيد الذي حافظ عليه حتى عندما فقد كل شيء سواه، بل قوي إيمانه وتعمق من خلال حوادث حياته. وضع أبوه ومعلموه في طفولته هذا الإيمان - حسب المذهب الحنبلي، وفي ضوء تفسير (ابن تيمية)، ومجدد (جزيرة العرب) الشيخ (محمد بن عبدالوهاب) - في عقل سريع التأثير. كان ذلك الإيمان قاعدة حياة (ابن سعود)، والمصدر المغذي لرؤيته للحياة، وكان سر نجاحه. ويعتبر (ابن سعود) نفسه ميسراً من عند الله لمصلحة شعبه، وقد سمعنا ذلك من فمه خلال فترة تمرد (فيصل الدويش) الذي كان في الماضي أحد مساعديه المخلصين، وبدا أنه يعرّض حياته للخطر: «يستخدمني الله طالما أنني مناسب كأداته، وإذا أصبحت عديم القيمة فيرميني، ولله الحمد».

اعتبر (ابن سعود) نفسه مدعواً ليصبح ملكاً وإماماً ومصلحاً ومنقياً للدين، وهذا الإحساس كان واضحاً في كل أعماله. إن المهمة التي كلفه الله بها لمصلحة شعبه، والشعوب العربية المجاورة، والدين الذي أتى به (النبي) من (مكة)، والذي اعتنقته كثير من الشعوب غير العربية، يقترب إنجازها. وبعد وفاة (ابن سعود) قد يصبح من الممكن إعطاء حُكمٍ على أعماله من ناحية تقدير إنجازاته الإيجابية الدائمة، أو تحديد ما فاته تحقيقه.

إذا حاولنا الحديث عن مكانة (ابن سعود) عند شعبه ونظام الإسلام بصفة عامة فستكون محاولتنا هذه مبدئية. ولا ينصب اهتمامنا على الرجل وأعماله فحسب بل على حياته العربية التي تتغير بسرعة. ومنها ندرك صغر هذا العالم وكيف ترتبط الشعوب بعلاقات قوية ، ويتطور تاريخها بسرعة. لا يستطيع أي شعب أن يبقى منعزلاً، حتى القبائل الصحراوية المقيمة في (المملكة العربية السعودية). ويُشك كذلك في بقاء منع دخول (مكة) و(المدينة) على غير المسلمين في المستقبل حسب ما يمليه الشرع الإسلامي. إذ إن وجود مناطق تبلغ عشرات

الكيلو مترات ويمنع دخولها على من لا تتوفر فيهم شروط اعتقادية معينة أمر مشكوك فيه. وسوف نعرف ذلك في المستقبل [1].

وما تزال مناطق ذات قدسية خاصة في هذا العالم مقصوراً دخولها على المؤمنين بها ، ويجب على الآخرين احترام الحساسيات العميقة لهؤلاء المؤمنين.

يخرج هذا الشعب - الذي أقام بجوار الأماكن المقدسة منزوياً عن العالم ألف سنة- إلى المشاركة في مسيرة البشرية المعاصرة، ويواجه دينه مشكلات العالم الحاضر.

عندما عادت الدعوة السلفية بقيادة (ابن سعود) كانت تهدف إلى نهضة دينية إصلاحية، وهذا يثير تساؤلاً حذراً مفاده: هل يخرج من (جزيرة العرب)، هذا البلد الصحراوي دعوة إصلاحية روحية للعالم الإسلامي؟!

كانت الآمال معقودة على شخصية (ابن سعود) من قبل شعوب عربية أخرى بعد أن راقتها أعماله، وكان هناك تساؤل هل يمكن أن ينشأ الخير في هذا البلد البدوي البسيط المسمى نجد؟

أدرك ذلك الزعيم البدوي ركاب السياسة العالمية من الغرب ، واتسم بالحكمة وسداد الرأي عند تقويم مشكلات السياسة العالمية ، وتطور علاقات القوة بين الدول.

بالتأكيد أثرت كلمات (ابن سعود) ومبادئه في تطور العالم المعاصر، وقد عرف حدوده منذ البداية حيث اقتصرت على داخل (جزيرة العرب)، لكنه لم يلبث أن تجاوز اهتمامه ونشاطه

---

(١) شكوك المؤلف هنا غير صحيحة؛ لأن الوضع مازال قائماً إلى اليوم، حيث يتم تطبيق هذه الشروط وفق ما تمليه القواعد الإسلامية في هذا الشأن، ولمنع بعض المحاولات من قبل بعض غير المسلمين الذين يعلنون إسلامهم مؤقتاً لكي يفوزوا بفرصة السماح لهم للدخول إلى الأماكن المقدسة، فقد اشترط الملك(عبدالعزيز) مضي سنة على إسلام الشخص والتزامه بتعاليم الدين.

خارج تلك الحدود، فضم الحرمين (مكة) و(المدينة)، المدينتين المقدستين في الإسلام. وقد أعطاه هذا المركز الروحي في الإسلام - حيث يقصد المسلمون هاتين المدينتين - إمكانية الاتصال المباشر بالشعوب الإسلامية في العالم ومعرفة مشكلاتها السياسية والدينية [1].

ولتقويم سليم (لابن سعود) وأعماله، يجب رؤيته وسط العائلة التي نما فيها خلال فترة الصراعات للحصول على السلطة ولاسترداد حكم آبائه.

كان شاباً حمل قدر والده الذي صارع ولم يوفق ، ولذلك فقد عانى مرارة اللجوء والغربة. ويجب أن نعرف تاريخ أسرته وشعبه الذي ينتسب له، وبصفة خاصة الخلفية الدينية التي استمدت منها الأسرة السعودية قوتها ومقومات بقائها فكانت تشعر أنها مدعوة لنصرة الدين.

يشير البحث عن عوامل نشأته وتاريخ أسرته إلى الخط الذي تتحرك حكايتنا حوله، (فابن سعود) عربي من الوسط المجهول (لجزيرة العرب)، أحد أحفاد (محمد بن سعود) حليف المجدد (محمد بن عبدالوهاب)، فقد ساعده بقوة السيف، حتى حقق النصر، وسادت الدعوة الوهابية السلفية جزءاً كبيراً من (الجزيرة العربية).

سلك (ابن سعود) طريق هذين الحليفين من أسرته بعد أن تشرب مثلهما التي كانا عليها قبل قرن ونصف من الزمان. أخذ سيف (محمد بن سعود) ، وكان يحمل في ضميره دعوة الشيخ السلفية. كان مقتنعاً بأنه إذا سار على هذا الدرب فإنه سيستطيع توحيد هذا الشعب على هدي من هذه الدعوة السلفية. وسيخرجهم من فرقة القبائل إلى وحدة الإسلام. حيث كان في أول أمره رجل الدولة الإستراتيجي والرئيس البدوي وقد قال دوماً : إن حدوده كانت داخل

(١) تجاوزت جهود الملك عبدالعزيز تجاه المسلمين الاتصال حيث قدم لهم المساعدات ودعمهم في قضاياهم السياسية وكان لهم العون الكبير في مختلف المجالات.

(جزيرة العرب)، ويبدو أنه لم يدرك الامتداد الروحي للإسلام خلف هذه الحدود[1]. كان ملكاً لشعبه البدوي، وكان إماماً لإخوانه المقاتلين الذين تبعوه في كل شيء ، وساعدوه على تأسيس مملكة سعودية واحدة على الأرض الأولى للعرب.

لم يعط (ابن سعود) نفسهً أكبر من حجمها، ومن هذا الإدراك الواعي يتبين لنا قوته وضعفه في الوقت نفسه ، قوته التي يعرف قدرها، لكن لا يسمح لها أن تعميه عن الحقيقة، فيطلب أكثر مما يستطيعه فيسقط آخر الأمر، وأما ضعفه فهو خوفه من فشله في مهمته ، لكنه لا يسمح لأحد أن يقوم نيابة عنه بإنهائها.

كان (ابن سعود) مؤمناً متواضعاً يثق بنفسه بعد توكله على (الله). كان إيمانه (بالله) كبيراً، وكان في ذلك يلتزم بصورة صارمة بعقيدة السلف وما ورد عن (رسول الله). رأى أزمة الحاضر، ولكنه رآها لدى شعبه في (جزيرة العرب) فقط، فرأى أن العلاج يكمن في العودة الحقيقية إلى العقيدة الصافية التي دعا إليها الرسول (محمد)، وإلى شريعته كما نزلت، لكنه لم ير الواقع الحاضر لشعبه وللعالم الإسلامي ، لهذا فلم ينصب نفسه مصلحاً للمسلمين كافة ، رغم مضي ١٣٠٠ عام على البعثة النبوية، لهذا كانت النهضة الوهابية الثانية وزعيمها الثاني محددة في الجزيرة ، فلم يطمع في إصلاح خارج حدودها، رغم إيمانه القوي بضرورة الإصلاح. وقد رأى أن يكون شعبه مقتدياً (بمحمد) في فكره ومعيشته. وإن لم ير نفسه مصلحاً للعالم الإسلامي، وهذه الناحية أثرت في مستقبله أكثر من مرة.

بنى دولته الدنيوية والروحية بجهده في (جزيرة العرب)، وقد نظرت إليه الشعوب العربية نظرة الزعيم القوي في صراعها مع الصهيونية العالمية في (فلسطين)، لكنه لم يبادر إلى إنجاز

(١) كان الملك (عبدالعزيز) يدرك الامتداد الروحي للإسلام خارج حدود (الجزيرة)، وقد قام بجهوده المعروفة في خدمة المسلمين داخل (الجزيرة العربية) وخارجها، ولكن المؤلف يعتقد بأن مسؤوليته تتجاوز الممكن إلى غير الممكن، وهي قيادة المسلمين.

عسكري عندما اغتصبت (فلسطين)، ولم يصبح رئيساً للجامعة العربية، ولذلك بقي العرب بدون رئيس وبدون قوة [1].

قام (ابن سعود) بعدة محاولات للالتقاء بإخوانه المؤمنين في العالم الإسلامي سواء أكان ذلك في المؤتمر الإسلامي أم في اجتماعات الحجاج في (منى). لكن صوته لم يصل إلى المسلمين خارج الجزيرة. كان مؤيدوه من الوهابيين يفهمونه ، لكن صوته لا يبلغ آذان الملايين من المسلمين المتشوقين إلى إنسان يقودهم في هذا الزمان، وما زالوا ينتظرون [2].

لاحظت أيها القارئ أن هذا الكتاب ليس إطراء لبطل بل هو محاولة لرسم صورة لرجل كبير، ولتاريخ (جزيرة العرب) وتاريخ الإسلام فيها في ضوء منجزات هذا الرجل. وسوف يتناوب اليأس والأمل لكل من يطلب مخرجاً، ولن يندهش المسلمون من سيطرة الضلال والهموم، لأنهم يدركون أن هموم المسلمين المرتبطين ببلد الوحي وأهله كثيرة.

أسس (ابن سعود) مملكته البدوية في جزيرة العرب ببطولة مستوحية رومانسيتها من هذا البلد الصحراوي القديم، واستخدام إمكانيات محدودة غير متأثرة بالتقدم الحضاري في معارك التحرير ، وإن كانت مستثمرة بصورة عبقرية في معارك التوحيد. لكنه بعد ذلك يبعد الحواجز المانعة عن معرفة ما لدى العالم المعاصر.

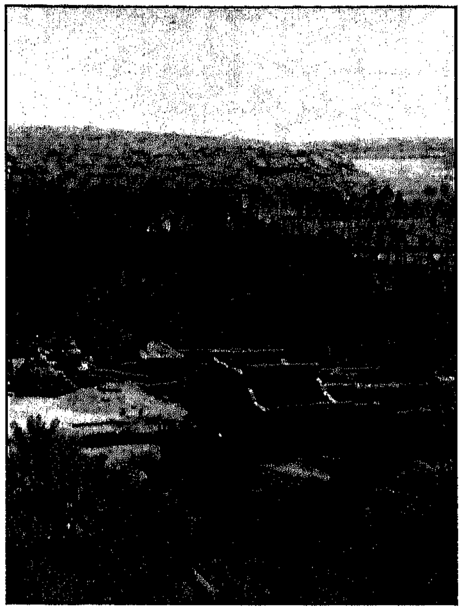
ويختم (ابن سعود) حقيقة تاريخية تنتهي معه، فلقد حصل على فرصته الأخيرة بأن أدرك الواقع في شيخوخته، حيث دخلت قوة النفط المحركات الحديثة بسرعة.

---

(١) ما ذكره المؤلف هنا غير صحيح لأن الملك(عبدالعزيز) بادر إلى دعم (فلسطين) عسكرياً، فأرسل جيشه إلى (فلسطين) في عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، وأما من ناحية عدم توليه رئاسة جامعة الدول العربية فإن ذلك يعود إلى أن الجامعة مكونة من أعضاء مؤسسين، وكانت (المملكة) من الأعضاء الذين أسسوا الجامعة. ولم يأل الملك (عبدالعزيز) جهداً في دعم جهود الجامعة العربية، ونصرة القضايا العربية والإسلامية.

(٢) لا شك أن صوت الملك عبدالعزيز وصل إلى الملايين من المسلمين ولكنهم كانوا تحت سيطرة دول استعمارية بذلت جهوداً كبيرة لمنع تأثير الملك عبدالعزيز ودعوته الإسلامية الصحيحة من الوصول إليهم.

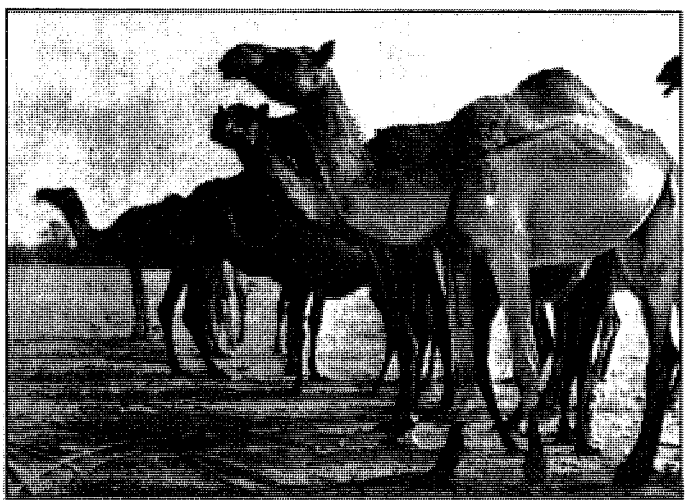
اختفى الحارس من أبواب (المملكة العربية السعودية)، وبدأ إشعاع التطور الحديث يدخل أجزاء الجزيرة ، ولن يتوقف عند حدود دولة (ابن سعود)، ويعبر الصحاري البعيدة، وتبدأ (جزيرة العرب) في الانسحاب من العربي القديم بمجده وجماله و فقره وشهامته وخوفه...لننتظر قدوم جزيرة عربية جديدة.



٢- منظر من وادي حنيفة، موقع (الدرعية).



٣- البدو يسقون جمالهم في (يبرين) الخالية من السكان.



٤- الجمال في انتظار السقيا (يبرين).

١- جزيرة العرب

البلاد التي نشأ فيها آل سعود

(جزيرة العرب) بلاد أمرها عجب، أدت دوراً مهماً منذ فجر التاريخ، لم تمر بها أي أزمة في تاريخها؛ لأنها توجد في قلب الأحداث العالمية، وهي الصلة بين الغرب والشرق. مرت فترات من الزمن انسحبت فيها داخل نطاقها الحامي من صحاريها في قصر فقرها غير المحسود. بدت (جزيرة العرب) كأنها لا ترتبط بأي علاقة بالعالم خارجها. استمر ذلك الوضع حتى جاء كمال زمنها، وظهر سكانها الأشداء، نتيجة للقتال الدائم غير النهائي؛ بسبب معيشتهم الغامضة في صحاريها. دفعهم الجوع والطموح، مثل سرب من الجراد، للامتداد عبر الأراضي الخصبة الخضراء لجيرانهم. دفعهم مرة أخرى الإيمان بالواجب لنقل الرسالة السماوية إلى عالم مغمور بالمادية والشرك، عالمٌ بَعُدَ عن دعوة الإنسانية الفعلية أكثر فأكثر.

وقد أشاد كثير من المفكرين بالدور العظيم الذي أدته (جزيرة العرب) وسكانها في تاريخ الشعوب المحيطة بها، وكذلك في تاريخ الشعوب الكبيرة البعيدة عنها، حتى وإن لم تكن بينهم علاقة جغرافية على الإطلاق، بل ربطت بينهم قوة روحية تُعطي إيضاحات كثيرة لهذه الوظيفة التاريخية الغريبة لشعب صغير الحجم يحيا في بلد فقير. وعلى الرغم من هذا استطاع بلورة ثقافة عالية.

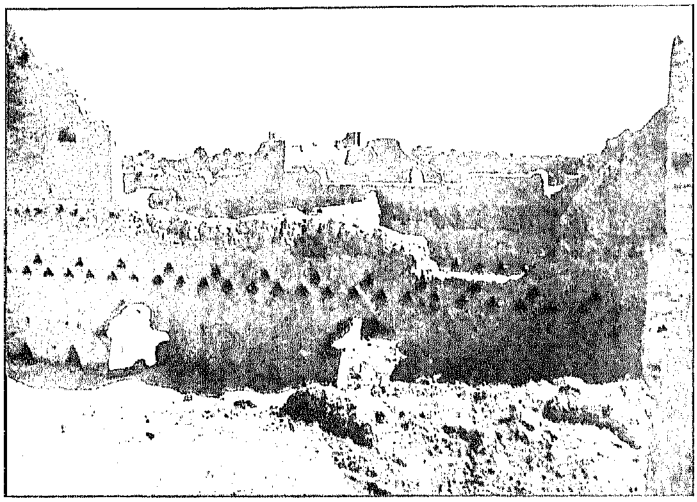
خرجت (جزيرة العرب) عن حدود صحاريها دائماً مثل ظاهرة طبيعية، فجأة وبشدة وكأمرٍ لا مناص منه. كانت فترات الجفاف الدورية -حسب ما قال العلماء- التي تبعها القحط، سبب ارتحال البدو إلى البلاد الخصبة. فأخذوا معهم كذلك دمهم الطاهر النقي وروحهم المقاتلة، ونقاءهم الروحي والقرائح الخاصة بالشعوب السامية. قُدر لهذا الدور أن يكون وقوداً لقوة روحية، وإمكانات عقلية بقيت نقية في بساطة وعنف المعاش البدوي، وتُحقن منها الشعوب

الضعيفة بسبب ظروفها الرخوة من حين إلى آخر. فكان هذا الدور مهماً جداً ، ولكنه لم يعط (جزيرة العرب) معنى أكبر من عامل مولدٍ لضواحيها.

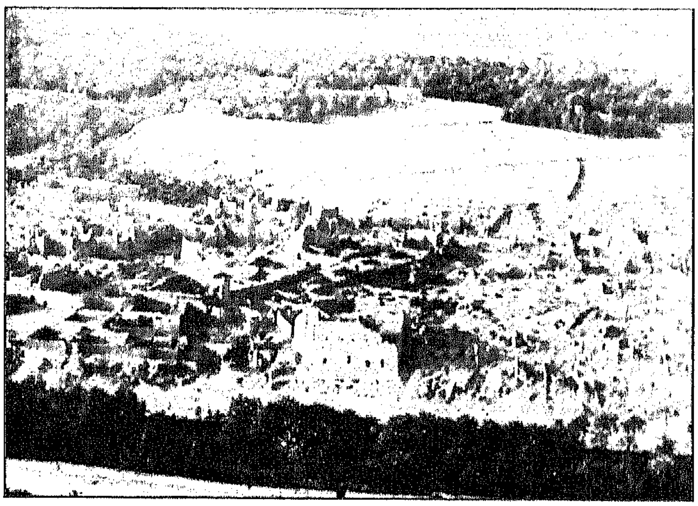
انتشرت من (جزيرة العرب) تأثيرات مهمة إلى أجزاء كبيرة من العالم. وهناك أسباب لهذه الظاهرة أعمق من الشروح العلمية المقدمة لها. ولن تُدْرك أسبابها عن طريق العلم فقط، بل يمكن إدراكها إدراكاً تاماً عن طريق الإيمان. (فجزيرة العرب) بلد الإيمان، وكان للموحيات الإلهية معنى عالمي، حتى دون رغبة في استخدام هذه الأداة، يواجه الباحث في تاريخ الجزيرة الواقع القائل: بأن الجزيرة مختارة من قِبل قوة أعلى من القوة الإنسانية، لأداء دور خاص في التاريخ العالمي. لم تقنعني محاولات الشرح باستخدام المنطق الإنساني. ولكن للاقتراب من هذا اللغز ينبغي أن يمتلك الباحث الضمير المفتوح للمؤمن البسيط. ويمكن للباحث المزود بهذه الأداة دخول (جزيرة العرب) ومشاهدتها، حيث بدأ تاريخ الإنسان، ووصل إلى قمته، وحيث يتوقع العرب وغيرهم أنها سوف تكون مسرح النهاية.

كانت الجزيرة من قبل في وضع أفضل من وضعها الحالي الفقير. حتى في ذلك الحين لم تقدر على منافسة مناطق كثيرة من العالم ذات ثروات طبيعية كبيرة، ولكنها استطاعت أن تصبح مصدراً للإنسان. بدأت مصادر العلم والثقافة في أراضي (جزيرة العرب) العقيمة تنتشر، مثمرة وموحية إلى العالم الذي أخذ منها أعلى نعماته الروحية.

رأت المجتمعات الناشئة في المناطق الخصبة أن الوجود المأمون يمكن أن يتحقق فقط بناء على جهود إنسانية منظمة وموحدة، فبدلاً من الانتظار والأمل في المطر، كانت شبكات الري مطلوبة لضمان ري المحاصيل الحسنة والمنتظمة من الأراضي الخصبة. ويفترض أن التعاون في إنشاء السدود وشبكات المياه، وضرورة صيانتها، وتوزيع المياه بين المشاركين فيها، كان أهم عامل لتأسيس الدول الأولى. وبعد اكتشاف سر التعاون بدأ صعود الإنسان عن طريق العلم والثقافة. وازداد الازدهار باستخدام نظام الري المتطور المساند من قبل الحكم المركزي، ونتيجة لذلك ارتفع جزء من الشعب فوق مستوى حياة كانت ممتلئة بالجهد والهموم والدموع. وأصبح بإمكانهم توجيه طاقتهم وعقلهم إلى العلم والفن.



٥- صورة من جزء من آثار (بالدرعية) أخذها السيد (توم بارجر) عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.



٦- منظر عام للدرعية.

لا نعرف حتى الآن بالضبط مستوى الحضارة في المناطق الجنوبية الغربية، والمناطق الشمالية الشرقية (بالجزيرة العربية). تقدمت الاكتشافات بالنسبة لتاريخ الاستيطان بسرعة خلال الفترة الأخيرة، وتدهشنا هذه الاكتشافات. فهي بلا شك تثبت أن الإنسان في (الجزيرة العربية) كان واعياً لمقامه الإنساني، وأنه كوّن به رؤية عما قد يكون ضمن إمكاناته إذا نظم حياته وأصر على التعامل الموحد عن طريق إطاعة الرؤساء والأئمة. ولكنهم للأسف فقدوا العلاقة الحميمة، مع (الله) العظيم، على هذا الطريق، وبحثوا عن الكبر في قدراتهم الذاتية، وتوحيد التعامل فقط. عرفوا أنه ليس من الممكن الاستغناء عن البركة الإلهية، لذلك بُنيت معابد كبيرة في المدن، بالقرب من القصور، وفي القرى أيضاً أنشئت أماكن للعبادة، حيث قدموا القرابين إلى آلهة غير معروفة، ولكنها معترف بها. ظنوا الحاجة إلى بركاتها، ولذا دفعوا ممتلكاتهم للحصول على هذه البركات. واستخدموا فن الكتابة إلى حد كبير للاتصال بعالم الآلهة المستتر. وكانت منحوتاتهم على الصخور وجدران القصور والمعابد ذات سحر أقوى من الكلمة أو الصلاة. ويفوق عدد النقوش والرسومات والخربشات الموجودة في شمال وغرب وجنوب (الجزيرة العربية) المئات بل الألوف، ويتقدم حل رموزها بسرعة. ولا بدّ من الاقتناع بأن هذه المكتوبات في الصخور ناتجة عن الأيدي الممدودة مصلية وطالبة البركات من أناس شعروا بأنهم غير قادرين على السير عبر طرق الدنيا أساساً وفقاً لقوتهم الخاصة. ومن حين إلى آخر تفوق الإنسان على خوفه، وظن أنه قادر على الاعتماد على قوته الشخصية، وحاول الإنسان في (الجزيرة العربية) تحقيق الأمور فوق الحد المحدد لها، فكان عقابه أمراً لا مفرّ منه. حفظت الديانات التي نشأت في (الجزيرة العربية) الحكايات عن الكوارث التي ضربت شعوب العمالقة الذين أنشأوا مبانٍ عظيمة عندما تجاوز كِبَرهم وافتخارهم الحدّ المقبول. كما شرحت الشعوب الباقية (بالجزيرة العربية) بقايا الثقافات السابقة المكتشفة التي غطتها رمال الصحاري جزئياً، والتي تحدثت عنها الكتب المقدسة لليهود والنصارى كذلك. أشار رسول الإسلام مراراً إلى هذا التدخل الإلهي لهداية الإنسان إلى الصراط المستقيم، في خطبه في (مكة) للمشركين. ولا تزال هذه القصص حية بين سكان (جزيرة العرب) الحالية. وفي أقصى مجاهل الصحراء تُسمع الحكايات عن شعوب العمالقة، (عاد) و(ثمود)، الذين أغضبوا الله بتكبرهم، فدمرهم عقوبة لهم على ذلك.

لم يستطع الإنسان أن يسلك طريقه وحده، فسقط من الارتفاعات التي وصل إليها بقوته الشخصية. فلا بدّ من دعم الله إذا رغب الإنسان في دوام قوته وخلودها. وفعلاً قدر (الله) أن يُنقذ الإنسان الضال مرة أخرى.

يختار (الله) (الجزيرة العربية)، بلد الجفاف والموارد المحدودة ، موقعاً للإنقاذ. ويرسل مبعوثيه ورسله بوحيه. بدأت الرسالات في الشمال، في المنطقة التي فيها نشأت الإنسانية، بلاد ما بين النهرين، (العراق) حالياً. هناك يختار الله (إبراهيم)، ليصبح النسب الأول لليهود والعرب، الذي تعترف المسيحية به أباً روحياً لها.

تلقى الإنسان أكبر الوعود التي حملها هدية على أكتاف الإنسانية، وفي الوقت نفسه مسؤولية عظيمة. ويتغير تاريخ العالم معه حتماً، وفي صحبة تاريخ الإنسان تصبح الشعوب المنحدرة من نسل (إبراهيم)، والعرب بصفة خاصة، وبلدهم، (الجزيرة العربية)، مسرحاً لأهم الأحداث.

ويدخل (إبراهيم) (جزيرة العرب)، ويسافر جنوباً حتى يصل إلى جنوب (فلسطين) التي تسمى الآن (سيناء). ولا يلبث نسله أن ينقسم. تدفع (سارة)، زوجه الأولى (هاجر) إلى السفر مع ابنها جنوباً إلى (جزيرة العرب)، ويصبح ابنها (إسماعيل) جداً للعرب.

هنالك خلاف بين اليهود والمسيحيين والمسلمين في وريث (إبراهيم) الروحي. ويرجع المسلمون إلى الواقع الذي يقول : إن (إسماعيل) كان ابن (إبراهيم) الأكبر، بالإضافة إلى ما قاله الرسول (محمد) عن هذا الأمر. ويرجع اليهود والمسيحيون إلى الواقع القائل : إن (سارة) والدة (إسحاق)، كانت الزوج الأولى والشرعية له، بالإضافة إلى كتبهم المقدسة التي وعد (الله) فيها ابن (سارة) ببركته الرئيسة.

كل الناس المؤمنين بصدق هذه الكتب، بما فيها القرآن الكريم، يصرّحون بأن أهمية دور هذه الشعوب البارز في التاريخ ترجع إلى اختيار (الله) (لجزيرة العرب) والشعوب الساكنة فيها.

هناك حيث يواجه العلم الوقائع المتعذر تفسيرها، ويدركها هؤلاء الذين تعلموا النظر بعيون صافية بناء على إيمانهم.

ينشر الرسل (باسم الله) الأديان الثلاثة على الترتيب الزمني التالي: اليهودية والمسيحية والإسلام. يجيئون بأخبارهم إلى الأراضي العربية وإلى الشعوب التي أرسلوا إليها، الشعوب الشقيقة للسلالة السامية. ويعترف الرسل الثلاثة كلهم (بالله) الواحد، الحكيم والعظيم، الآمر بالطاعة والمحاسب للإنسان على عمله. ليس (الله) خاصاً بالعرب أو السلالة السامية وحدها، ولكنه للإنسانية كلها. شاء (الله) تسليم رسالته عن طريق هذه الشعوب التي استقبلت موحياته لحفظها ونقلها بصورة صحيحة. وكانت البلاد العربية مختارة لتكون موقع الوحي الإلهي ومصدر الرسل والأئمة . إننا نجد في مناطقها الجافة الحياة والقوة الروحية المنعشة لمن يقيمون في بلاد أخرى، ممن يعيشون في ثروة مادية، ولكن بدون البركات الروحية، ولذلك يعيشون بلا مستقبل.

ارتقى الإنسان إلى مصاف الحضارة بصفة خاصة في البلاد العربية، وتعلم الطريق إلى مرتفعات الثقافة. وكذلك تعلم الإنسان في البلاد العربية عن طريق الإيحاء أنه يمكن أن يتوقع مستقبلاً أبدياً. وأن هدف حياته ليس في الدنيا، ولكن في الآخرة التي يسبقها يوم القيامة.

استقبلت (الجزيرة العربية) نفسها - المنطقة الواقعة جنوب شط العرب و(فلسطين) - رسولها وتلقت منه الوحي الإلهي بعد حوالي ستة قرون من رسالة الرسول السابق، نبي الله (عيسى) المرسل لليهود والمسيحيين في البلاد المقدسة.

بدأ (محمد) العربي القرشي رسالته في (مكة). ولم يبد المشركون في مكة الاستجابة، حتى بعد مرور ١٢ سنة من البعثة. لذلك تركهم وهاجر مع عدد قليل من أصحابه إلى (المدينة)، حيث بدأ نجاح رسالته. ولم يصبح (محمد) هناك رئيساً روحياً فقط، ولكن رئيساً اجتماعياً وسياسياً أيضاً. فبعد انحطاط الممالك العربية القديمة، كانت (الجزيرة العربية) المسرح

التقليدي للفرقة والشتات والحروب. أفلا نجد في الكتب المقدسة التنبؤ بالنسبة إلى جد العرب أن « سوف تكون يده ضدهم كلهم وأيديهم كلها ضده »؟

ولم تعرف (الجزيرة العربية) وحدة أكبر من القبيلة ولا أماناً إلا داخل القبيلة، ولم يكن ثمة قانون إلا قانون القبيلة والعائلة. كسر (محمد) هذه الحواجز بهجرته، حين قطع العلاقات بالعائلة والقبيلة ومدينة الآباء والأجداد. اتخذ خطوة شجاعة جديدة، وغير معروفة في بلده تحت ظروف حرجة جداً. وضع الدين (الإسلام)، فوق وحدة العائلة والقبيلة. تُختصر مقالته في قوله: «أسلم تَسْلم». علّم العرب النظر خلف الحواجز إلى علاقة الدين ووحدته، واتحد جزء كبير من (الجزيرة العربية) قبل وفاته تحت دين الله، وهذا شيء عظيم. لا يتوقف التصور الذي أعطاه الرسول لشعبه عند حدود (الجزيرة العربية)، بل خرج العرب من صحاريهم مرة أخرى مثلما حدث سابقاً، ذهبوا شمالاً إلى البلاد الخصبة المسماة (الهلال الخصيب)، في هذه المرة لا يدفعهم الجوع، بل شيء آخر، يدفعهم الدين ويجاهدون بقوة الإيمان. كانوا واثقين من أنهم يجاهدون لرفع راية (الله) ولا حول ولا قوة إلا بالله. وكان إيمانهم يكبر ورأيهم يتسع من خلال الجهاد. لم تقدر الدول المدافعة بجيوش كبيرة أن تقاوم هجوم هؤلاء المغامرين. لا، ليسوا مغامرين، هؤلاء الناس هم العرب المؤمنون يفتحون بجهادهم كل العالم المتحضر المعروف في ذلك الحين. وقد قوي إيمانهم نتيجة لنجاحهم. ألم يكن نجاحهم بإذن الله؟ خلال أقل من قرن من الزمان فتح العرب العالم، وأسسوا دولة الإسلام الممتدة من شاطئ (المحيط الأطلسي) في الغرب، إلى (الهند) في الشرق، ومن الصحراء في الجنوب إلى مدينة (فينا) في الشمال. انتقل مركز الحكم الدنيوي من (الجزيرة العربية) شمالاً، ولكن المركز الروحي بقي في (مكة) و(المدينة). ومن ضمن الأسباب لذلك فريضة الحج التي تجب على كل مسلم بالغ مرة في حياته.

أصبحت (جزيرة العرب) من الناحية الروحية بعد ظهور (محمد) كما نعرفها اليوم، وطن الإسلام العربي المقدس، حيث يوجد بيت (الله)، وحيث يقيم جيران بيته ، وحيث يعرف

المقيمون فيه أنهم شعب مختار[1] ، وقد تكرر تفرق القبائل مؤقتاً، لأن الإيمان ضعف ، وجاءت البدع التي لصقت بالإسلام وأبعدت بعض الناس عن الصراط المستقيم، وازداد الخروج عن السبيل. أصبحت (مكة)، مدينة بيت الله، حيث يتجه إليها المسلمون في صلواتهم خمس مرات في اليوم، مدينة تضم أناساً من ضعيفي الإيمان. وعانى مركز الإسلام الروحي من جور الحكم التركي المنحط الذي استولى عليه. فقدت (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة) كثيراً من بريقهما، ومن ضمن الأسباب التأثير غير العربي والولاية الأجنبية. ولكن نسل هؤلاء – الذين آمنوا بصدق حقيقي ودخلوا العالم وفتحوه بتلك القوة – ما زال يعيش في ضمير جزيرة العرب. مرة أخرى ولدت تلك القوة، وهذه المرة لتطهير النفس ولتنقية الدين والجهاد الجديد (باسم الله). فظهر رئيس ديني دعا وأرشد إلى السبل التي ضلوا عنها.

أصبح (محمد بن عبدالوهاب) من (نجد) في وسط (الجزيرة العربية) ذلك المصلح، ولكن لم تكن كلمة المصلح كافية، بل كانت حجة الكلمة في (جزيرة العرب) تحتاج إلى قوة السيف. أدرك (محمد بن سعود) تلك الحقيقة. وبعد أن وثق في كلمة (محمد بن عبدالوهاب) فقدّم له دعم سيفه، وعن طريق الدعوة بالحجة أولاً ، ثم بالقوة، رسخا جذور الدين في (جزيرة العرب) ، وأعاداه إلى نقائه الأول. كان (محمد)، رسول الإسلام، إماماً ورئيس الدولة وقائد الجيش في الوقت نفسه. ويمثل (محمد بن عبدالوهاب) والأمير (محمد بن سعود) من (نجد) بعض تلك الخصائص المقنعة للعرب، حيث إنهما دعيا إلى الإيمان ، وبالتالي وقع التغيير الكبير في (جزيرة العرب) القديمة والقوية، والتي لم تتغير في ضميرها.

---

(١) لم يكن المسلمون يعرفون بأنهم شعب مختار، أو يطلقون على أنفسهم هذه التسمية، وإنما كان يفعل ذلك اليهود.

٢- الوهابية

العامل الروحي المكون لآل سعود

انتقلت حركة تنقية الدين، الموحى به إلى الرسول باللغة العربية، إلى (نجد)، المنطقة العالية في قلب (الجزيرة العربية). وكان الوقت لإصلاح الإسلام مناسباً من حوالي قرنين من الزمان قبل هذا التاريخ، وبصفة خاصة في (الجزيرة العربية) موقع الحرمين الشريفين، وقبلة الحجاج القادمين لإصلاح حياتهم الروحية المحطمة، والالتزام بتأدية واجباتهم الدينية بشكل أفضل. كان من المفروض أن تكون (مكة) و(المدينة)- مدينتا الدين الصادر عنهما- الشفاء الأخلاقي الناجع. وكان من المفروض أن يشعر كل إنسان يقترب من (مكة)، مهد الكعبة، بيت الله، أنه يؤدي حق الله وفقاً لكلمته وبركاته. وكان ينبغي أن يذكّر كلُّ شيء في (مكة) الحجاج بالعهد المبارك عندما أرسل الله وحيه ورسالته عن طريق آخر أنبيائه، (محمد) خاتم الأنبياء، والمدينة المسماة (يثرب) في الجاهلية والتي سميت مدينة النبي، بسبب ما قام به محمد، والمعروفة حالياً في العالم كله (بالمدينة المنورة). هناك ظهر مجد الإسلام، وهناك تلقى العرب الرسالة، التي نمت وصارت عالمية. كان من الضروري أن تصير (المدينة) ذاكرة حية لتلك الفترة الكبيرة، عندما وضع (محمد) بكلمته ومبادئه الأساس لما أصبح نظاماً عالمياً، دينياً، وتعليمياً، واجتماعياً شاملاً الإنسان كله. الإنسان الذي أصبح قادراً على القيام بأمور كبيرة وغير متوقعة بوساطة هذا الدين ونبيه. لم تفقد المدينتان الشريفتان الإيمان الصحيح، والطاعة لله كما أعلنها ووصفها (محمد)، ولكن انحطت (الجزيرة العربية) كلها في تأدية الإسلام، وضلت وسلكت سبلاً فرعية مؤدية إلى الشرك. أصبح التوحيد، (وهو الاعتقاد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، وهو الفرق الرئيس بين المسلمين الموحدين بإله واحد، وغيرهم من المستغرقين في تقديس الأولياء وعبادة القباب على قبورهم. وعادت العادات الجاهلية، مثل عبادة الأشجار وما إلى ذلك. وبطبيعة الحال يؤدي انحطاط الأخلاق والدعوة إلى مثل هذه الانحرافات إلى البعد عن الإيمان الصحيح.

ونشأت في قلب (الجزيرة العربية) حركة إصلاحية موجهة ضد خطر مختلف، وهو الضلال في الدنيا والعودة إلى الجاهلية. ونتكلم هنا عن قدرة عقلية مختلفة تماماً، حيث إن (الغزالي) تحدث عن شوق الروح إلى (الله) الرحمن الرحيم، بينما جاءت من صحاري (الجزيرة العربية) الدعوة للعودة إلى الشريعة الصحيحة المستمدة من القرآن وسنة (الرسول) كما كانت من قبل. وهي دعوة دلت (الجزيرة العربية) الصحراوية على طريق العودة إلى أصول الدين. ورأى المقيمون خارج الصحراء أن الحياة منذ رسالة (محمد) لم تتوقف، وأن العودة إلى الأصول تكون نافعة فقط إذا اعتبرت هذه العودة تحولاً يمنع أخطاء الماضي، وتسمح بالتقدم السريع البعيد عن صلابة الحاضر.

إن محاولة الإصلاح في البلد الذي ولد فيه الإسلام، بدت فرصة للتجديد. انقضت ثلاثة قرون فقط بعد انتشار الإسلام ثم توقف المد الإسلامي . وقد كان من الممكن أن تصبح العودة إلى الأصل مثل توليد الطاقة، معينة للذهاب في طريق جديد عبر هذا الحائط. انطلقت الدعوة الأولى للإسلام، بقيادة الرسول، من باطن (الجزيرة العربية)، وكان نجاحها عظيماً. هل كان من الممكن أن ينطلق صاحب حركة الإصلاح من هذه (الجزيرة العربية) لإنقاذ وضع الإسلام والمسلمين ؟

من عائلة تضم كثيراً من العلماء الأجلاء ولد (محمد بن عبدالوهاب) حوالي عام ١٧٠٠م (يقول بعض المؤرخين : إن ميلاده كان عام ١٦٩١م وبعضهم ١٧٠٣م)[1]. وهي عائلة تنحدر من نسل قبيلة الشعراء القديمة والمعروفة من (بني تميم). ولد في بلدة (العيينة) الواقعة في (وادي حنيفة) في (نجد)، ويقول بعض المؤرخين إنه ولد في (حريملاء) شمال (الرياض). كان جده من أبرز العلماء في البلد. وكان أبوه (عبدالوهاب) عالماً أيضاً، وكان يعمل قاضياً في (العيينة) ومؤلفاً لبعض الكتب في موضوعات دينية، وكان رجلاً صبوراً وعاكفاً على تعليم ابنه. لم يلبث أن ظهرت التباشير الكبيرة على ابنه ، الذي أكمل حفظ القرآن وكان عمره عشر

(١) الصحيح أنه ولد سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م في العيينة.

سنوات فقط. قرر أبوه تزويجه عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة. فأصبح الابن رجلاً بالغاً وعاقلاً . وحيث إنه وفىّ بالشروط التي تنص عليها الشريعة، كان مسموحاً له أن يؤدي فريضة الحج. وفعلاً حج (محمد بن عبدالوهاب) الفتى الصغير وسافر إلى (مكة) و (المدينة). وفي المدينتين وقعت طرق الحياة الإلحادية من نفس الصغير، الموجه إلى الدين، موقعاً مؤثراً. وبعد عودته عمّق دراسته الدينية وسافر إلى (البصرة)، وفيما بعد إلى (دمشق) ، و(بغداد)[1]. وكان يتبع مذهب الإمام (أحمد بن حنبل) الذي يتبعه النجديون ، ودرس مؤلفات العالم الحنبلي الكبير (ابن تيمية)، خاصة شروحه عن التوحيد وتأثر بها، وكان قد وعظ الناس في (البصرة) ضد كل أشكال الشرك، ودعاهم إلى التوحيد، واختيار وحدة الله بصفتها نواة وأساس صحيح للدين. « لا أحد يستحق العبادة إلا الله، بينما يستحق الأولياء والناس الكرام احترامنا فقط. لنا أن نسير على خطوات والٍ ونتشبه بمبادئه، ولكن نصلي لله فقط».

اختار الأمير الوقوف إلى جانب (ابن عبدالوهاب) في (العيينة)، فقاما معاً بالأعمال العامة الأولى. عرف (محمد بن عبدالوهاب) أن مجرد الكلمات لن تقنع أولئك المخالفين، إذ لا بد من إعمال القوة. فقد قطع شجرة مقدسة بالقرية، ورجم امرأة طبقاً للشريعة، حين أثبتت الأدلة الشرعية أنها زنت، ورمى الأمير نفسه الحجر الأول. بعدئذ أمره أمير (الأحساء) بقتل المتحمس الشديد الذي يقلق المنطقة كلها. فاختار حاكم (العيينة) المخرج الأنعم والآمن لكلا الطرفين، فأنذر (محمد بن عبدالوهاب) الذي هرب إلى (الدرعية)، وحصل على تأييد الأمير (محمد بن سعود).

حينئذ قرر الأمير (محمد بن سعود) أن يدعم المصلح ، أو إذا استعملنا المجاز العربي « رمى الله في قلب (محمد بن سعود) حب الشيخ » ومن ثم بدأت فترة كبيرة من البعث والإصلاح للحياة السياسية والدينية (بجزيرة العرب). ففي عام ١٧٤٤م عقد (محمد بن عبدالوهاب)

(١) الصحيح أن رحلاته شملت: مكة المكرمة، المدينة المنورة، البصرة، والأحساء.

توفي (محمد بن سعود) عام ١٧٦٤م ، ولم يشهد الانتصارات الكبيرة لابنه (عبدالعزيز) حين دخل (الرياض)، عاصمة (نجد) عام ١٧٧٣م. وتوسعت النهضة إلى أبعد من حدود البلاد، ووصلت إلى (النجف) و(كربلاء) عام ١٨٠١م ونظفت المدينتان. وانتقم الشيعة في العام التالي، ١٨٠٢م، فُقتلوا (عبدالعزيز) عندما كان يصلي في مسجد (الدرعية)، المدينة التي ولد فيها.

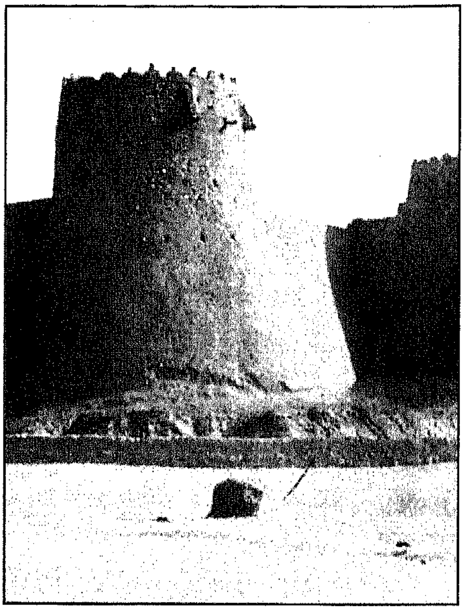
أدى تقدم الدعوة الإسلامية إلى منطقة شط العرب إلى خروج الوهابية من حدود (جزيرة العرب) ودخولها عالم الإسلام الكبير، وبصفة خاصة الدول التي كان يحكمها العثمانيون. ولم تسمح السلطة العثمانية بهذا التدخل، وأمرت والييها في (سوريا) ومنطقة (شط العرب) بإيقاف أصحاب الدعوة القادمين من (نجد). ولكن لم يجرؤ الواليان على معارضة الوهابيين الذين يواصلون دعوتهم الدينية. وانتقل الوهابيون إلى الهدف الأول والرئيس من الحركة، وهو تحرير المدينتين اللتين يجب أن تكونا مقدستين ومثاليتين للعالم الإسلامي كله. اتجهوا أولاً إلى (مكة) ودخلوها عام ١٨٠٣م ، ونفذوا دعوتهم الدينية ، وأزالوا القباب التي بنيت على القبور، كما أزالوا الأماكن التي وضعت لتقديس الرسول على غير هدى (لم يكن الرسول إلا بشراً ، حتى لو كان نبياً ورجلاً مباركاً بين الناس) . وأزالوا القباب التي كانت على قبور أفراد عائلته. وفتح (عبدالله بن سعود) (المدينة)، وبذلك صارت كلتا المدينتين تحت سيطرة السعوديين ، فأصبح الحج تحت إشرافهم [1] .

وهكذا اتصلت الوهابية بالحجاج من كل أنحاء العالم الإسلامي وهم خائفون، وتبدأ بذلك حيرتها. هل يمكن أن تتسع إمكانية الإصلاح هذه، المميزة بالعودة إلى الأصول من قلب الإسلام، إلى كل أجزاء العالم أو يرفض المؤمنون التقليديون هذه الدعوة، ويرجعونها إلى داخل (الجزيرة) حيث بدأت الحركة، وبذلك لا تؤثر في الإسلام العالمي فيما بعد؟ ويحدث الخيار الأخير .

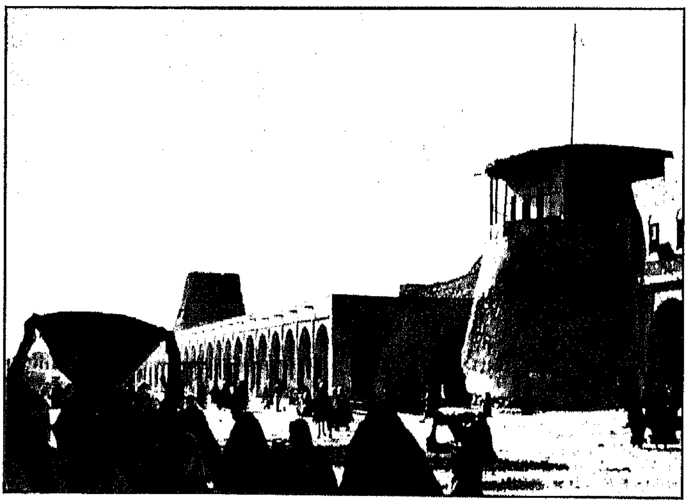
(١) ماتم إزالته كان خارجاً عن الدين، مثل: القباب، المشاهد، والأضرحة التي أصبحت مكاناً يقصد للعبادة على وجه غير شرعي. ولم يتعرض أتباع الدولة السعودية إلى الأماكن المقدسة الشرعية.



٧- سور الكوت في مدينة (الهفوف).



٨- سور الكوت في مدينة (الهفوف).



٩- (الهفوف) داخل أسوارها. منظر للسوق الجديد.



١٠- في مزارع النخيل الممتدة بمدينة (القطيف).

و (محمد بن سعود) حلفاً بينهما، وهو حلف ربط أسرة هذين الرجلين حتى الوقت الحاضر. وأصبح الشيخ – المصلح – في نجد خلف الأمير الذي صار فيما بعد الحاكم والإمام. وأصبحت بنات الشيخ زوجات الأمراء، أبناء الإمام.

هل من الممكن أن نتحدث عن تحول (ابن سعود) الذي دعم المصلح الديني بسيفه إلى الخروج بالدعوة الوهابية؟ من المحتمل أن تكون الإجابة في البداية: لا. ويفترض أن حساب النجاح السياسي كان العامل الحاسم لدى الأمير. ولكن الشيخ (محمد بن عبدالوهاب) كان يدرك ما يعمل، فهو أولاً يثق في قوة كلمته المدّعمة بأمر إلهي للإنسان، ويعرف القبائل في (وسط الجزيرة العربية) ، فهي قبائل لا بد من أخذها بالشدة ودفعها إلى صراط الدين المستقيم بالقوة، عندئذ سوف يستيقظ الحماس الراكد عندهم، وسوف يرتفع حب الغزو، الرياضة المحبوبة لديهم، من مستوى الطموح إلى السلب والقتل إلى مستوى الجهاد في سبيل الله. وسوف يسيرون على خطى رسول (مكة) وأصحابه المشهورين الذين حملوا الإسلام على حد سيوفهم إلى العالم. إن أتباع الشيخ لا يحاربون الكفار، بل المسلمين الضالين في سبيل تنقية دينهم. هل هذا هو الفرق الأساس بينهم وبين أولئك الذين بادروا إلى تحويل المشركين إلى الإسلام .

كان (محمد بن عبدالوهاب) يريد أن يكون الرئيس الروحي والمعلم لشعبه يدعوهم للتوبة، ويحثهم على الجهاد، وأن يكون (محمد بن سعود) سيف الحركة والقائد الإستراتيجي ورجل النظر السياسي. وكانت قدوتهما (محمد)، رسول (الله) إلى (جزيرة العرب) أولاً . ثم إلى الناس كافة، الرجل الذي كان رئيساً روحياً وسياسياً وقائداً عسكرياً في آن واحد. وعلى يديه ظهرت أهم الإنجازات الكبيرة التي قام بها العربي حين أيقظه إيمان يشجع غزواته عن طريق رفعها إلى الجهاد في سبيل الله، لتكون الشهادة سبباً في دخول الجنة مباشرة.

شكل (محمد بن عبدالوهاب) الزعيم الديني و(ابن سعود) القائد السياسي معاً نهضة، وموجة إصلاح، تنقي قلب (الجزيرة العربية) من غلبة الشهوات وتعيده من ضلاله إلى الدين الصحيح، وتزيل عنه كل زخارف الدنيا وتوجهه إلى هدف واحد هو مرضاة (الله) وعبادته على نحوٍ صحيح بعيدٍ عن الانحراف.

كيف يمكن إرجاعهم إلى صحاريهم؟ يتحمل السلطان في (إسطنبول) مسؤولية طردهم خارج المدينتين المقدستين، ولكن لم تكن للسلطان القوة لمعارضة السعوديين عسكرياً. لذا كلف (مصر) بهذه المهمة ، حيث بنى (محمد علي) جيشاً قوياً، استرد به المدينة عام ١٨١٢م ، وفيما بعد (جدة) و (مكة)، وانسحب السعوديون إلى (نجد) بلدهم الصحراوي. وشعر (عبدالله بن سعود) بأمان في (نجد) بعيداً عن السلطة المركزية، ولم يلبث أن بدأ بأعماله العسكرية من جديد. وظهرت (مصر) هذه المرة ممثلة (بابن محمد علي إبراهيم باشا)، قائد الجيش المرسل الذي عبر ١٠٠٠ كيلومتر من الصحراء، وهجم على قصر الوهابية (بالدرعية). واستسلمت تلك المدينة المبنية من الطين في (وادي حنيفة)، بعد حصار استغرق عدة شهور، ودمرت بالكامل باستخدام مدافع حديثة. ثم أرسل قادة (نجد) أسرى إلى (إسطنبول)، حيث قطع رأس (عبدالله)، الأمير الرابع (لآل سعود)، في الميدان أمام (أيا صوفيا) عام ١٨١٨م . ويعني هذا الحادث نهاية الدعوة الوهابية الأولى من الناحية الظاهرة، حيث لم يتأثر واقعها الروحي، فلم يكن من المستطاع إزالتها بأسلحة مادية، لأنها سوف تنهض وتخرج حالما قام فارسها بدعوتها.

توفي الشيخ الكبير، (محمد بن عبدالوهاب)، مؤسس الحركة الوهابية، عام ١٧٩١م وكان في التسعين من عمره تقريباً، ولم يشهد قمة الدعوة، دخول (مكة) و(المدينة). عاش ٥٠ عاماً بعد حلفه مع (محمد بن سعود)، وظل في (الدرعية)، وشهد سيطرة الدعوة ، ولكنه لم يشاهد انكسارها وعودتها إلى (نجد)، البلد الذي نشأت فيه. ولم تبق من الدولة السعودية إلا قطعة، و(الرياض) عاصمتها بدلاً من (الدرعية) المدمرة التي لم تُشيدّ من جديد، وزالت أهميتها، ولم يُعد أحدٌ ينتبه إليها.

ويمضي السعوديون في حياتهم مشتاقين إلى استرداد سيطرتهم التي دامت فترة قصيرة ، ولم ييأسوا، ولكن لم يتخلصوا من تنافسهم وتعاركهم الداخلي. وكانوا يواجهون سوء الحظ ، حتى قدوم (سعود بن فيصل) . ويهزمهم (ابن رشيد) من (حائل) في منطقة (شمر). ويعانون الخيانة والقتل وسفك الدماء خارج قصرهم وداخله. ويتحملون القسوة والخيانة وتعارك

القبائل، الشقاء الخاص (بجزيرة العرب) كلها. يصاب القارئ بحزن عند قراءة هذه الروايات، ويصيبه كذلك البؤس نظراً لضياع هذا الحماس وهذا الإيمان. أين بقيت الكلمة النبوية من بيت الشيخ في تلك الفترة المظلمة؟ أين الذراع القوية والرأي السياسي اللامع من بيت (آل سعود)؟ سوف تجيء فرصتهم مرة أخرى بإذن الله. وهكذا يأمل أُناس من (آل سعود) و(آل عبدالوهاب)، لذلك جرى الإعداد للأمر في سرية تامة ، حيث استمر أئمة الوهابية في مهامهم الدينية بين الناس، وهم معلمو (عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود) أيضاً. وقعت كلمة المُعلم ومبادئه في نفس (ابن سعود) الذي سوف تكون حياته شديدة الصعوبة ، ومحفوفة بخيبات أمل كثيرة. إن مذهب (أحمد بن حنبل) المعمق من قبل (ابن تيمية) ، والمطبق من قبل (محمد بن عبدالوهاب) يغذي (ابن سعود) منذ طفولته. فهو يؤمل في أن يصبح أداة في يد (الله) الواحد العظيم. بهذا الإيمان يستطيع أن يتحمل عدم توفيق والده في استرجاع سلطانه دون أن يشك في هذا الإيمان، بل يتعلم منه. وأخيراً ينتهي في السلطنة الصغيرة (الكويت)، يتعلم من عثراته. ونتيجة لذلك تعمق إيمانه بالله، وأصبح الإيمان زاد حياته، ومالكه من الداخل. وعندما صعد ومعه اثنا عشر رجلاً[1] من أتباعه سور المدينة المفقودة (لآل سعود)، (الرياض)، نادى بوصيته الإرشادية الوحيدة « لا حول ولا قوة إلا بالله » كصلاة وكشهادة، حدث ذلك في شتاء عام ١٩٠٠م إلى ١٩٠١م، (وابن سعود) الشاب لم يتجاوز عمره عشرين عاماً حينذاك. ترك أبوه القتال لاسترجاع حق (آل سعود)، بعد رحلة أخيرة لم يكتب لها النجاح ضد (آل رشيد). ونقل مهمته وحقوقه رسمياً إلى ابنه الأكبر (عبدالعزيز).

(١) يقصد المؤلف هنا محاولة الملك عبدالعزيز استرداد الرياض أثناء معركة الصريف وذلك في عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م. وماذكره هنا عن أن أتباع الملك عبدالعزيز كانوا اثني عشر رجلاً غير دقيق؛ لأن الحصار استمر طويلاً وكان قوياً. كما أن عمر الملك آنذاك كان خمسة وعشرين عاماً.

٣- ابن سعود يقبل المهمة

ولد (عبد العزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود) بقصر (الرياض) في صباح آخر يوم من سنة ١٨٨٠م[١]. كان الابن الأكبر (لعبدالرحمن) وأمه (سارة بنت السديري)، وكانت امرأة كبيرة وقوية من (آل موقر) من (وادي الدواسر) جنوب (نجد). وكان جده (محمد ابن سعود)، هو الرجل الذي وضع الأساس للأسرة عن طريق اتفاقه مع الشيخ (محمد بن عبدالوهاب)، وكذلك أسهم في نجاح الدعوة الوهابية الأولى.

بدا كل شيء يسير ضد (ابن سعود) الأصغر بسبب خصومات أعمامه إخوان أبيه الكبار، من خلال صراعاتهم للسيطرة على الحكم، والتخلص من حكم (ابن رشيد). وبقي (عبدالرحمن)، أصغر الإخوان الأربعة الوحيد حياً، وورث الحكم. سمح (آل رشيد) بوجوده في جناح القصر فقط، وعاملهم كان الحاكم الفعلي في (الرياض).

كان (عبدالرحمن) حُراً، فلم يحتمل هذا الوضع، ولذا بدأ القتال لاسترداد سيطرة أسرته حالما أتيحت له الفرصة. ولكنه لم ينجح في أي من محاولاته، وتعب الذين ساعدوه في البداية من عدم النجاح، وفقدوا ثقتهم . وعانت (الرياض) من الحروب التي لا تنتهي، حتى إن سكانها رغبوا في السلام والراحة فقط .

هرب آخر (آل سعود) من القصر (بالرياض) عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، بعد عدم توفيقه في محاولة يائسة أخيرة لطرد (آل رشيد). بدأ الهروب قبل شروق الشمس، وركب (عبدالعزيز)، الذي كان عمره اثني عشر عاماً[٢]، مع أخيه الأصغر (محمد) على جمل واحد، يسير بإيقاع سريع. وتمكن المرافقون القلائل من إبعاد المطاردين من قبيلة (شمر) عن ركب الهاربين. ومضت القافلة المكونة من النساء والأطفال والخدم والعبيد شمالاً، ووصلت

---

(١) الراجح أن ولادة الملك عبدالعزيز كانت سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م.

(٢) كان عمره آنذاك ستة عشر عاماً.

(الأحساء)، وطلبت جوار قبيلة (العجمان). وجد (عبدالرحمن) وعائلته أماناً مؤقتاً، ولكنه شعر بأن هذا الوضع لن يطول، حيث إن الجوار لم يمنح خالصاً، لأن قبيلة (العجمان) كانت تخشى من انتقام (ابن رشيد) القوي.

قرر (عبدالرحمن) إرسال النساء والأطفال شرقاً إلى (البحرين)، الجزر الواقعة في (الخليج العربي) تجاه شواطئ (الجزيرة العربية). وسوف يكونون هناك بأمان، وكان الوالد يرى أن (عبدالعزيز) ضعيف على مرافقته في جولاته، لأنه كان يعاني الحمى، فأرسله مع النساء إلى (البحرين) للشفاء من مرضه. وما وجده في (البحرين) كان أفضل مما توقعه. كان الإفرنج الذين قابلهم في المستشفى يتكلمون لغة (بريطانيا)، ولكنهم مبشرون أمريكيون. ربما كان هناك تفسير للصداقة فيما بعد بين عائلة (عبدالعزيز بن سعود) و(الأطباء الأمريكيين ديم Dame وهاريسون Harrison وستورم Storm وزوجاتهم). تُلقي هذه الصداقة بين (عبدالعزيز) وهؤلاء الأطباء القائمين على العمل ضوءاً واضحاً على نُبل شخصية (ابن سعود).

بعد فترة طويلة، وعندما سيطر (ابن سعود) على الحكم في (الرياض)، أصابه ورم خبيث في حنجرته سبب له صعوبة في التنفس، وعلم الطبيب السوري المقيم في القصر أنه لا بدّ من إجراء عملية، ولكنه لم يستطع ولم يجرؤ على تحمل المسؤولية. كذلك لم يعرض (ابن سعود) نفسه للعملية، إنما تذكر في حالته تلك حال مستشفى (البحرين)، فأرسل مبعوثاً سريعاً إلى الدكتور (هاريسون) يطلب مساعدته. وحالما وصل الدكتور إلى (الرياض) بدأ بإجراء العملية. وتمت العملية بنجاح، ومن ذلك الحين استمر الاتصال بين القصر في (الرياض) وأطباء المستشفى في (البحرين) منتظماً. جاء الأطباء بممرضات أثناء زياراتهم نصف السنوية، وكن ضيفات مقدرات في حجر الحريم بالقصر، حيث قمن بمساعدات طبية وأخلاقية في قصر (آل سعود) الواسع.

لم يستطع (عبدالرحمن) أن يُعيد (الرياض)، لحكم (آل سعود) حين قام بمحاولة أخيرة لاستردادها، فقد هزم الجيش المرابط (لابن رشيد) جماعته الصغيرة بسهولة. عند ذلك

عرف (عبدالرحمن) أنه فقد السلطة ورجع إلى (الهفوف)، مدينة الواحات المحاطة بجدران في (الأحساء). وهناك وقع حادث غير متوقع، حيث كانت القوة النامية (لابن رشيد) تقلق الأتراك الذين يحافظون على حكمهم في (جزيرة العرب) عن طريق إثارة الفتن بين الأطراف المختلفة. واقترحوا على (عبدالرحمن)، أن يمدوه بالمال والسلاح عن طريق واليهم في (الهفوف) بشرط أن يسمح بجيش تركي يرابط في الرياض، إذا نجح في استردادها، ويتعهد هو بالاعتراف بولاية السلطان. عبرّ (عبدالرحمن) من خلال رفضه الحاسم للأتراك عن استيائه من هؤلاء المسلمين بالاسم فقط.

وارتحل (عبدالرحمن) جنوباً إلى (بني مرة)، البدو البسطاء ذوي الحياة القاسية المقيمين في جوانب (الربع الخالي)، صحراء الرمال الكبيرة، أرض الجوع والعطش. شفي ابنه (عبدالعزيز) ولحق به، وحينما عانى والده الحياة القاسية وسط شعب مسلم، واستفاد الابن من هذه الحياة أدباً وخبرة احتاج إليها لتأدية مهمته فيما بعد، فقد كان يعيش صراع البدو القاسي للحصول على لقمة العيش. ويشاهد الاهتمام والمجهودات اليومية في الحصول على مياه الشرب للقطعان وتغذيتها، وتأتي حياة الناس في المرتبة الثانية. فلو سلمت حياة القطعان يستطيع الناس البقاء على قيد الحياة باستخدام الحليب، شرابٌ وطعام في الوقت نفسه. وإذا لم يتناول الإنسان شيئاً سوى الحليب لفترة معينة ، فإنه يصاب بإحساس من الجوع الشديد، والبدو يعيشون بهذا الإحساس، وهم متعودون عليه. وإذا تعود الناس على الحليب يستطيعون البقاء بصحة جيدة وأقوياء عدة أشهر ،حتى ولو نحلت أجسامهم. تعرف (عبدالعزيز) على قساوة حياة البدو الحقيقية وهو المولود في قصر، وقد عرف الحياة في الصحراء في السابق بصفتها نزهة بحضور الخدم والطعام الكافي. أدرك الآن حياة البدو وقوانينهم وعاداتهم القديمة، مثل الحقوق على المراعي والعيون وعادات الضيافة. وركب معهم خلال غزواتهم وحارب معهم. وسُمح له بالمشاركة في رياضة البدو، وهي الغزو، الذي أصبح ضرورة لحياتهم، لأنه كان كبير الحجم بالنسبة لعمره وقوياً ورياضياً منذ طفولته. يرى (ابن سعود) هنا أن الغزو سيف يقطع إلى نصفين، ولكنه يجرح قابضه أيضاً بلا رحمة. وتولد الغزوات الضغائن،

فضلاً على أنها سبب الخوف الدائم والشكوى الأبدية، والبغض الذي يمنع السعادة الإنسانية. ويروي عطشه إلى الرومانسية في مدرسة (بني مرة).

نتيجة لتهذيبه الديني رأى حقيقة القسوة والظلم عبر ظاهرة الفخر، حتى لو لم يُرِ نظره الشاب هذه النواحي المظلمة الخاصة بهذه الحياة البدوية. وكان والده يراعي لفت نظره إلى نواحي الجوع والعطش، فتستهلك روحه الشابة كل الأمور الجديدة، ويستمع ضميره الشاب بكل انتباه عندما يناقش شيوخ القبيلة مشكلاتهم حول نار المخيم، وعندما يذكر شعراؤهم ورواتهم الأعمال البطولية لرجال (بني مرة) خلال غزواتهم في الماضي على نحو مسجوع، لم يعرف حينئذ أنه أيضاً راوٍ ممتاز، وأنه يتمتع بذلك الفن القديم والنبيل في (جزيرة العرب)، وهو الكلمة الشعرية. ويدرك وجدانياً قوة الشاعر والراوي المجيد وسط البدو. وتبدو فيما بعد مهارة التلميذ (ابن سعود) عندما تعلم فن البلاغة المشتق من الحياة البدوية لدى (بني مرة)، وواصل تعليمه حتى تمكن من رئاسة البدو. وأُعجب المستمعون ببلاغته، سواء العرب أو الأجانب الذين يفهمون لغته.

ونحن نكتب هذه الملاحظة بثقة، حيث إننا سمعنا قوة كلماته وبلاغته شخصياً أثناء محادثاتنا مع الملك (عبدالعزيز) نفسه، ونذكر متعتها ولكن أبلغ من تلك المحادثات بلاغته خلال مخاطباته في الاجتماعات العامة ، والتي تظهر من خلال طرح آرائه مستخدماً الأسئلة والأجوبة بشكل عبقري، ودافع عن سياسته الراهنة والمستقبلية، وسوف نشير إلى بعض الأمثلة فيما بعد، في الوقت والمكان المناسبين. هناك في الصحراء وضعت الأسس لمهارته الخاصة بالتصوير الخيالي الصحراوي، واستخدام صوته الغني ذي الإمكانات المؤثرة، وفن تمثيله على مستوى ملكي.

نرى ضرورة إعطاء اهتمام خاص لهذه النقطة؛ لأننا نجد فيها إحدى خصائص (ابن سعود) لقيادة قبائل البدو الخشنين، لم يكن له مثيل في ذلك. طور قوته كاملة في هذا المجال، وبنى نجاحه كملك بدوي عليها. واسترد مدينة (آل سعود) خلال غزوته الأولى، حيث مكنه تعليمه في الصحراء من ذلك ، وأظهر له الطريق لاسترداد مملكة آبائه الصحراوية.

كان لبقاء والده (عبدالرحمن) لدى (بني مرة) زمناً أثر في جسده وروحه. شعر بكبر السن والتعب، وتاق إلى حياة هادئة مع زوجه وأطفاله، واشتاق إلى مرافقة الناس الطيبين والخائفين من (الله)، وإلى نظام الحياة الإسلامية العربية ذات الالتزامات الدينية الدقيقة. لذا كانت الدعوة من السلطنة الصغيرة (الكويت)، الواقعة في شمال شاطئ (الخليج العربي)، للإقامة بها ضيفاً على حاكمها (محمد الصباح) مخرجاً له. ولم يدرك أن السياسة التركية كانت خلف هذه الدعوة، وقد دفعت الخزانة التركية تكاليف بقائه بدلاً من مضيفه. وتتضح الحقيقة فيما بعد عندما قدّم الأتراك (لعبدالرحمن) اقتراحاً لطرد (آل رشيد) من (الرياض) بمساعدتهم. مرة أخرى يرفض الاقتراح ، ولكن في الوقت نفسه يعرف من أين تأتي ضيافته! فيغضب ويشعر بالإهانة، ولو كان باستطاعته لرد كل قرش استلمه ، وكان دفع الإعانة التركية الصغيرة غير منتظم، وعاشت عائلة الأمير حياة متواضعة في بيت من ثلاث غرف في حي من أحياء (الكويت) الممتلئ بأوساخ المدينة والروائح الكريهة والذباب. واشتاق هو ومن معه إلى الهواء النقي في (نجد)، إلى المناخ الخفيف والجاف، وسعة البيوت.

كانت (الكويت) مدينة تجارية تعج بالكثير من الأجانب. وكانت كذلك مدينة الغوص عن اللؤلؤ، والغواصون يحصلون على أجر لا يكفيهم، وهم في قبضة صاحبهم بطريقة أشبه بالرق. عانى (عبدالرحمن) إلى حد كبير من هموم حماية أبنائه من هذا البيئة الغريبة عنهم، ولماّ كان العرب يعتبرون تزويج الأولاد وهم صغار في السن الوسيلة المثلى ضد الحرام المحتمل، فاختارت والدة (ابن سعود) بنتاً بدوية لابنها عمرها ١٥ سنة، ولكنهم كانوا مضطرين إلى تأجيل الزواج ، حتى يتم تأمين المال اللازم لإبرام عقد النكاح على نحو مبسط.

كان من المفترض ألا يتأذى (ابن سعود) من حالة الهم والفقر التي يعانيها ، تجول مع أصدقائه في المدينة وشاهد حياة العالم الأجنبي التي اختلفت كثيراً عما شاهده من قبل. عاد (مبارك الصباح)، شقيق الأمير، إلى الكويت كابن مفقود بعد أن أنفق كل أمواله في المدن الكبيرة في (الهند). لم تكن العلاقة بين الأخوين جيدة، كان (مبارك) رجل الدنيا، كريماً وطيباً. ونشأت صداقة قوية بينه وبين (ابن سعود)، الذي اغتنم الفرصة للتعرف على عالم

جديد له. أوضحت هذه الصداقة غير المتوقعة عالم المكايد السياسية التي تفوقت على منافسات القبائل العربية. وجرت في (الكويت) حرب سرية، بين (ألمانيا) – التي خططت أن تكون (الكويت) نهاية سكة الخط الحديدي من (بغداد) – و(روسيا) – و(بريطانيا)، اللتين لا تريدان هذا المنافس الجديد في الشرق الأوسط. اكتُشف النفط في (بلاد فارس)، وكانت (الكويت) محطة مهمة فيما يسمى: «الطريق الأهم في العالم» ، حيث صار الطريق عبرها أقصر طريق بين (أوروبا الغربية) و(الهند). وانتهزت (تركيا) فرصة جديدة للمحافظة على ذاتيتها السياسية في المنطقة بواسطة هذه المعركة المهمة، فاختارت جانب (ألمانيا).

تغيرت الظروف (لابن سعود) تماماً عندما قتل (مباركٌ) أخاه الأمير الحاكم (محمداً) واستولى على السلطة، وبادر إلى المشاركة في لعبة السياسة الدولية بمهارة شديدة. تابع (ابن سعود) المحادثات بين الأمير (مبارك) وقناصل الدول المعنية . كره (مبارك) (تركيا) كرهاً طبعياً، حتى لو كان خاضعاً للسلطان في (إسطنبول) اسمياً. فقد عرف (مبارك) الإدارة الفاسدة وضعف الحكم المركزي في (إسطنبول)، وأساليب الاستغلال عديمة الرحمة التي تسيطر بها (تركيا) على ولاياتها وتجني خيراتها، مثلما عرفها السلاطين والأمراء العرب الآخرين. وكان أن اختارت (تركيا) جانب (ألمانيا) حليفاً عند تقدمها إلى الشرق، وكان لا بد (لمبارك) أن يعطي دعمه إلى الطرف الآخر (بريطانيا)، التي سوف تسعى لمنع نجاح منافسها الجديد. ولم يكن اختيار (مبارك) لجانب (بريطانيا) بناء على عاطفة تجاهها ، ولكن بسبب كرهه (لتركيا).

كان (ولهيلم الثاني) قيصر (ألمانيا) قليل الصبر فرتب خططه السياسية والجغرافية، وضغط على حليفه التركي لاتخاذ مواقف حاسمة. ولما كانت (الكويت) إحدى الولايات التركية، فلماذا لم يصدر هذا السلطان أمره (لمبارك) بقبول الخطة الألمانية؟ كان الأتراك ماكرين وقرروا الاعتماد على العداء القديم بين (آل رشيد) و(الكويت) ، وبادروا إلى الحشد والإعداد، بل سبقهم الأمير (مبارك) الذي كان مزوداً بأفضل جهاز للاستخبارات في مدينة (الكويت) ووجد الحلفاء من قبائل (بني مرة) و(العجمان) و(مطير)، حيث إن العدو هو

(ابن رشيد). ويعرف (مبارك) أنه يستطيع أن يعتمد على الدعم الكامل من قبل (آل سعود)، حتى ولو كانت لدى (عبدالرحمن)، ذي التجربة، اعتراضات جدية حول بعض تصرفات مضيفه. ولم تكن هذه حجة مقنعة (لابن سعود) الذي كان شاباً يمور بالطموح إلى العمل والإنجاز.

ارتحل جنود (مبارك) من (الكويت) - البلد الصغير الذي كان عاجزاً من الناحية العسكرية - إلى الصحراء بأعداد كبيرة بالنسبة إلى (جزيرة العرب)، قبل أن يستعد (ابن رشيد) لهم. قاد (مبارك) القوة الرئيسة لجنوده مباشرة إلى مركز (آل رشيد). وكان (عبدالرحمن)، الذي تغلب على اعتراضاته، يرافقه لاغتنام الفرصة للقتال ضد (ابن رشيد) وكلف الأمير (مبارك) (ابن سعود) بقيادة عدد قليل من الجنود، للارتحال جنوباً لاستدراج واستنفار القرى التي يعبرها، ثم يتقدم بعد ذلك إلى (الرياض) لاستردادها[1].

هذه هي فرصته الحقيقية الأولى! وإن كانت قد سبقتها من قبل مغامرة متسرعة، عندما حاول بمساعدة بعض الأصدقاء استرداد (الرياض) دون إعداد أو تمهيد كافيين. فلم تكن لديه مقومات النجاح ، وصارت المغامرة المتسرعة (لابن سعود) موضوعاً للأحاديث حول أنوار المخيمات في شمال (الجزيرة العربية)! لا شيء يؤلم في (الجزيرة العربية) الصحراوية أكثر من الهجاء؟ وكم يستمتع الناس به، وكيف يجرح الشعر المهجو! لقد اشتاق (ابن سعود) إلى عرض قدراته ، ولكن كانت تنقصه الوسائل، والآن لديه الوسائل. وخلال ارتحاله لملاقاة (ابن رشيد) انضم إلى صفوفه -بحماس- الرجال القادرون على القتال. بدا أن هذه الغزوة ستكون كبيرة وناجحة جداً!. أخفقت الأمور في الشمال، حارب (مبارك) (آل رشيد) في الصحراء المفتوحة، ولم يقدر أتباعه الطامعون إلى السلب فقط على مقاومة الجنود المدربين. وغدره (العجمان)، فانهزم، منسحباً بسرعة إلى (الكويت)، التي كانت مدينة تجارية بلا قدرات دفاعية، فيها خير كثير، وسكانها غير قادرين على القتال. وفقد (ابن سعود) الفرصة ، بسبب

(١) اتجه الملك عبدالعزيز نحو الرياض بجيش صغير رغبة منه وبنية استردادها ولقي ذلك تأييد الشيخ مبارك الذي كان يطمع في أن يؤدي ذلك إلى إشغال ابن رشيد في الجنوب وذلك لمصلحته.

انهزام (مبارك)، فقد تقدم (ابن رشيد) وعاقب القرى والقبائل التي خانته عقاباً شديداً. واقترب من (الكويت) التي لم تُصلح أسوارها الطينية منذ زمن. وانهزم جنود (مبارك) مرة أخرى في معركة أخيرة بالقرب من (الجهراء)، وانتظر سكان (الكويت) برعب الأحداث القادمة. وانسحب (ابن سعود) بلا غطاء يحمي ظهره، ومعه عدد قليل من أنصاره إلى مدينة (الكويت) العاجزة عن تقديم الحماية أيضاً. أعد (عبدالرحمن) عائلته للخروج من (الكويت). إلى أين هذه المرة؟ أنقذت (بريطانيا) الموقف في لحظة قمة الأزمة. لم تستطع (بريطانيا) أن تترك (الكويت) للأتراك ، خشية أن تقع هذه المدينة المهمة في يد الألمان. فأرسلت تحذيراً إلى (آل رشيد)، وسفينة حربية لتأكيد تهديدها.

وبذلك مُسح الحلم الألماني في إنهاء خط السكة الحديدي من (بغداد) في (الكويت) من الخريطة السياسية الجغرافية. وتم إنقاذ (الكويت) بسبب التدخل البريطاني. وتعلم (ابن سعود) من هذا الموقف دور السياسية الغربية وأثرها، وكان من الضروري أن يعرف السياسة العالمية وتأثيرها في تحقيق النجاح حتى في الحروب بين القبائل داخل (جزيرة العرب). وتعلم وأدرك في (الكويت) أبجديات المنافسة بين الدول الغربية في المنطقة، وهي تتنافس للحصول على النفط من (بلاد فارس)، والسيطرة على المعابر المهمة للطرق التجارية العالمية الواقعة في هذه المنطقة. أخفى الأمير (مبارك) هذه الحقيقة الجديدة عن نظر (ابن سعود) المندهش الذي كان متجهاً نحو الصحراء في ذلك الحين. وكانت هذه الحقيقة مثل واقع الصحراء، قاسية للطرف المنهزم، نتيجة لضعفه أو إهماله. تعرف الأمير (مبارك) على العالم الكبير في مدن (الهند)، ويبدو أن المندوبين البريطانيين في (الكويت) تركوا انطباعاً على (ابن سعود) بآرائهم وثقتهم الهادئة بالنفس، وإدراكهم وشعورهم بالقضايا العربية، بطبيعة الحال، لصالح (بريطانيا) العظمى. هل من دولة أخرى سواها امتلكت خبرة عميقة في اكتشاف (الجزيرة العربية) الغامضة؟ هل من شعب غير شعبها أبدى اهتمامه الكبير بسكانها الأقوياء الموهوبين؟ لقد شعرنا عند مقابلاتنا الشخصية الأولى مع (ابن سعود) بإعجاب لمهارته كرئيس بدوي، وأدهشنا إدراكه للسياسة العالمية حين تعمق تعارفنا به.

وشاهدنا الأدلة الحسنة على إدراكه خلال الحرب العالمية الثانية، ونعتقد أن أصل إدراكه العميق يرجع إلى ما تعلمه في (الكويت) ، حيث تفتحت عيناه على الخطوط الرئيسة في السياسة العالمية، التي واصل دراستها بإدراك متزايد، ووظف الإمكانات لدراسة السياسة العالمية أثناء حياته مثلما وظفها قليل من الناس، واتصل به البريطانيون أثناء الحرب العالمية الأولى، حين وجدوا فيه الرجل القوي القادم من الجزيرة العربية .

كان الوضع في (الجزيرة العربية) يشغل أنظار العالم خلال الحرب العالمية الثانية، وهي جزء من العالم حيث دارت المعارك. نظر (ابن سعود) إلى كبرياء (روزفلت)، وفهم معنى صداقة (أمريكا) (للجزيرة العربية). وعقب الحرب العالمية الثانية وقف بجانب (أمريكا) في ضوء السياسية المقررة للزيت في عالم معتمد على الزيت تماماً. لا نريد أن نمضي إلى الأمام في وصف حياة (ابن سعود)، وكيف سخّره الله في فترة التحول (لجزيرة العرب) ، من بلد تقليدي إلى بلد جديد بالزيت. أردنا أن نشير هنا فقط إلى أن الرجال الكبار يقفون دائماً في مواقع خطيرة أثناء فترات مهمة من التاريخ لأنهم كبار، أو لأنهم أصبحوا كباراً بسبب تلك الظروف.

نعود الآن إلى (الكويت) التي نجت من السلب بسبب السفينة الحربية البريطانية التي وصلت في اللحظات الحرجة ، وقد يكون (ابن سعود) هو الوحيد الذي لم يشعر بالانهزام، حيث إنه قاد جنوداً وشاهد معاناة الواحات والقبائل في (نجد) من حكم (آل رشيد)، وتذوق الخروج، فلم يستطع أن تتعود طبيعته القلقة على الانتظار في (الكويت). وكان يناقش مع (مبارك) أخطاءه خلال الحملة السابقة ، ويحاول إقناعه بأن النجاح مايزال ممكناً ، وبأن الوقت ما يزال مناسباً. كان (مبارك) يتساهل، ولكنه لم يخاطر كثيراً. إنه يعرف: أنه إذا فشلت الحملة فيمكن أن يمضي (ابن سعود) مغامراً وحده، فليست هناك علاقة بين (مبارك) والمغامرات. أعطى (مبارك) (ابن سعود) عدداً قليلاً من الإبل وعدداً من البنادق والذخيرة، ومائتي ليرة ذهبية.

بادر (ابن سعود) إلى العمل، وتوفيت زوجته الأولى، البنت البدوية، بعد ستة أشهر من زواجهما، فتزوج زوجتين أخريين بعد وفاة الأولى. وولد له (تركي)، من إحداهما. ترك عائلته التي ماتزال صغيرة تحت حماية والده الذي كان مثل والدته، لا يثق في الحملة. وقد نصحته أخته المحبوبة (نورة)، في تلك الظروف الصعبة، وكانت تثق في أخيها وفي خطته وفي نجاحه. ولم يكن صعباً على (ابن سعود) إيجاد بعض الأنصار لحملته المحكمة، وكان من المهم أن ينضم إليه (ابن جلوي) وأخوه (محمد)، وابنا عمه.

ارتحل (ابن سعود) في الصحراء نهاية صيف عام ١٩٠١ مع حوالي ثلاثين رجلاً[١]، من ضمنهم أخوه (محمد) وابنا عمه، حالهم حال الغزاة. وكان (ابن سعود) يطبق ما تعلم لدى (بني مرة). وكان رجلاً في العشرين من عمره تقريباً[٢]، وكان يفوق الآخرين طولاً، وقوة وإصراراً، وبطبيعة الحال كان هو رئيسهم. إن الصحراء أمامهم ، وكان مجهولها يدعوهم بإمكاناتهم غير المعروفة. كانوا يخيفون (العجمان)، ويباغتون (آل رشيد) بهجمات سريعة وغير متوقعة ، ولكن لم تندلع المواجهة المتوقعة بين سكان (نجد) و (الرياض) ، حيث إن سكانها واجهوا كثيراً بسبب مساندتهم (آل سعود)، وكانوا يخافون من (آل رشيد). كانت تلك الفترة قاسية جداً على جماعة (ابن سعود) الصغيرة في قلب الصحراء. فالبدوي لن يواصل القتال ما لم ير بشائر النصر، أو يحصل على السلب.

ناقش (ابن سعود) الموقف مع رجاله في منطقة واحات (يبرين) قرب (الربع الخالي). وأقنعهم بثقته وبقوة إرادته مرة أخرى، لكن بعضهم تخلو عنه. وعرف (ابن سعود) أن هذه فرصته الأخيرة ، وعليه المخاطرة بكل ما يملك. وسيكون هدفه (الرياض) نفسها، مدينة (آل سعود)، فأرسل سبوراً يستعلم عن الوضع داخل المدينة بدقة، وقرر المخاطرة. كانت الخطة تقضي بأن يبقى مع رجاله في الصحراء لمدة خمسين يوماً للتخلص من كل الشبهات لاستقصاء أقصى عوامل النصر. على أن خطته لم تكن متعجلة ، ولكنها كانت حملة نفذها

(١) كان عدد الرجال الذين خرجوا مع الملك عبدالعزيز وتمكنوا من استرداد الرياض ثلاثة وستين رجلاً.

(٢) كان عمره آنذاك ستة وعشرين عاماً.

بضبط النفس والصبر الشديد. ولم تكن قيادة مثل هؤلاء الرجال كل هذه المدة أمراً سهلاً تحت تلك الظروف الصعبة، ولكنه نجح في ذلك. وقضوا معظم شهر رمضان يؤدون التزاماتهم الدينية. وفي العشرين من رمضان بعد الإفطار، أي بعد غروب الشمس وبعد صلاة المغرب أعطى (ابن سعود) الأمر بإزالة المخيم. وقضى الجميع عيد الفطر بعد شهر رمضان في هدوء وخفاء عند آبار (أبو جفان) القريبة من (الرياض)، وعندما وصلوا إلى منطقة (جبل طويق) كان عليهم الارتحال أسرع من الريح التي قد تسبقهم، فيصلون إلى (واحات النخيل) عند (الرياض). ترك (ابن سعود) عشرين رجلاً في الواحات بجمالهم ، وواصل التقدم نحو (الرياض) مع أربعين رجلاً ، حتى بلغوا حافة الحدائق حول المدينة ، حيث توقفوا لقطع نخلة طويلة الساق. وحملها ستة رجال مختارين تحت رئاسة (ابن جلوي) لاستخدامها سلماً لتسلق سور المدينة. وبقي الآخرون عند هذا الحائط، وقال (ابن سعود): انتبهوا، إذا لم تسمعوا مني غداً فأسرعوا إلى الآخرين وارجعوا إلى الكويت، وقولوا لوالدي إنني ميت أو مسجون لدى (آل رشيد). «لا حول ولا قوة إلا بالله». هذا التعبير أكثر من صلاة في وقت الطوارئ. هذا (ابن سعود) الحقيقي - رجل يستمد قوته من عند الله. يتسلل مع جماعته الصغيرة إلى سور المدينة بلا صوت، في وسط ليل داكن وبارد في شهر يناير من عام ١٩٠٢. سمعوا حركة الحارس وهو يتفقد السور، فوضعوا بسرعة النخلة على السور الطيني ، وصعدوا عليها، وكانت أسلحتهم ملفوفة في ثيابهم ، حتى لا تلمع أو يصدر عنها صوت. ونزلوا إلى الجانب الآخر وثباً، ووقف (ابن سعود) في مدينة آبائه وأجداده من جديد!.

كان (عجلان)، حاكم (آل رشيد) على (الرياض) يبيت عادة داخل القصر ، وعند شروق الشمس يخرج من البوابة لدخول منزله أمام القصر. حصل (ابن سعود) على هذه المعلومات من سبوره وعمل خطته. كان (جويسر)، راعي بقر، يسكن بجانب بيت عجلان. فطرقوا بابه وسمح لهم الدخول. وتعرف أهل (جويسر) على الفتى (ابن سعود) وأحبوه. واستطاع أن يعتمد على مساعدتهم وإبقاء حضوره سراً بينهم. وذهبوا عن طريق السقف إلى سقف منزل الحاكم ودخلوا منزله. وأخذوا زوجة (عجلان) وأختها وكل الخدم الذين كانوا نائمين

وحبسوهم في إحدى الغرف. وانتظروا بعد ذلك بعض الساعات. وسمع (ابن سعود) من النساء أن الحاكم يعود إلى منزله عادة بعد حوالي ساعة من الشروق. فوضع حارساً أمام إحدى النوافذ لمراقبة بوابة القصر. وأرسل مقاتلاً آخر إلى الرجال الآخرين المنتظرين لإحضارهم. وجلسوا مع بعضهم يستمعون إلى أحدهم وهو يقرأ القرآن الكريم. وتناول بعضهم شيئاً من الطعام، وبعضهم الآخر حاول أن ينام. وقبل شروق الشمس أدوا صلاة الفجر خلف (ابن سعود)، إمامهم الشاب. ثم بقي كل واحد منهم جاهزاً لما سوف يحدث فيما بعد.

ثم سمعوا وقع حوافر الفرس وأصوات الرجال حين جاء الحاكم وحراسه على خيولهم. وكان الصوت مسموعاً في الغرفة ، حيث ينتظر رجال (ابن سعود). ففتحت بوابة القصر الخشبية الثقيلة المقواة بالنحاس ، وخرج الحاكم منها مع انتهاء الفجر. فقفز (ابن سعود) عبر النافذة وبادر إلى القتال لاسترداد الرياض. فدهش (عجلان) من خصمه الذي يجري إليه ويصيح صيحات الحرب، ولكنه بادر إلى الهجوم حالاً. وجذب سيفه وبدأ يضرب، تفادى (ابن سعود) الضربة ببندقيته. وأمسك كلٌّ منهما بحنجرة الآخر، وسقطا في صراع قاتل على الأرض. وأبعد رجال (ابن سعود) حراس القصر عنهما بإطلاق النار من بنادقهم. وبذلك تم إنذار القصر وظهر الجنود عند البوابة، وتبادل جنود القصر ورجال (ابن سعود) الموجودون في منزل عجلان إطلاق الرصاص. حدث كل شيء بسرعة. وأطاح (ابن جلوي) بجندي حاول مساعدة عجلان أرضاً.

سحب (عجلان) نفسه عن (ابن سعود)، وركض إلى بوابة القصر، وأخذ (ابن سعود) بندقيته، وأطلق الرصاص وجرحه في ذراعه، وسقط سيفه من يده، وركض (ابن سعود) خلفه، وقفز عليه، وقبض على ساقه، فأمسك (عجلان) بحافة البوابة. وجاء رجال من الطرفين للمساعدة ، وبالقرب من البوابة دار صراع شرس بين الرجال الذين يصيحون ويضربون ويلهثون، وأطلق الرصاص عليهم من القصر، وركل (عجلان) (ابن سعود) ركلة عظيمة في خصره ، حتى أحسّ بألم شديد. وسحب أحد الحراس (عجلان) عبر البوابة إلى

داخل القصر، ثم حاول إغلاق البوابة. ورمى (ابن جلوي) وثلاثة رجال أنفسهم على البوابة ونجحوا في إبقائها مفتوحة. وشق (ابن سعود) طريقه وبعض رجاله عبر فتحة البوابة بجهد شديد. وجرى (عجلان) داخل القصر ، وخلفه (ابن سعود) و (ابن جلوي) بسيفيهما مشهرين، كان (ابن جلوي) أسرعهم، فذبح (عجلان).

استرد (ابن سعود) القصر، وقُتل رجلان من جماعته، وأصيب أربعة بإصابات شديدة، كان عددهم ثلاثين رجلاً فقط ، بينما كان يبلغ عدد الجنود في القصر ثمانين. ولكن ما زال للمهزومين رؤساء وأي رؤساء! أسرع (ابن سعود) وابن عمه إلى الممرات المرتفعة بجانب جدران القصر. كلهم كانوا يعرفون أنهم إما أن ينتصروا أو يموتوا، وكانوا واثقين من النصر، بإذن الله.

قُتل عدد من جنود القصر وحبس عدد آخر. وكلف (ابن سعود) بعض رجاله بإعلان خبر استرداد (الرياض) في الشوارع، وبأنه عاد أميراً لمدينة أجداده وآبائه، وأنه يدعوهم للقبض على رجال (ابن رشيد)، وتقييدهم حيثما يختفون. ظهر سكان المدينة واستسلمت بقية الجنود. وكان السكان قد خضعوا (لآل رشيد) نظراً لعجزهم، ولكنهم كانوا يعترفون (بآل سعود) رؤساء حقيقيين. الآن رجع الأمير الشاب، أعطاه الله يوماً مجيداً وهذا اليوم بداية لعهد جديد. لا أحد يدرك مدى هذا الزمن الجديد! أولاً (للرياض) ثم (نجد) وأخيراً (الجزيرة العربية) كلها. وكانوا يفكرون بالطريقة العربية التقليدية، أي بحجم القبيلة. وربما كان هنالك واحد فقط يفكر في أبعاد أخرى، حيث إنه يفكر في أكثر من وحدة القبيلة ، ويثق في الوحدة التي قدمها النبي (محمد)، وهي الإيمان الصحيح.

قَبِل (ابن سعود) مهمة أسلافه، بمعنى الرئاسة الدنيوية والروحية. وإن كان النصر قد بدأ في (الرياض) إلاّ أن المعركة الكبيرة لم تبدأ بعد. فلن يستسلم (ابن رشيد) بسهولة، ومايزال الأتراك يساعدونه . وكان هناك بعض المخالفات الدينية المنتشرة في (الجزيرة العربية)، وسوف يلزمهم بالعودة إلى الإيمان الصحيح، كما علمه الشيخ (محمد بن عبدالوهاب).

وهذه المهمة كبيرة فعلاً، ولكن (عبدالعزيز بن سعود) يؤمن بقدرته ، ويتجرأ على دخول هذه المعركة بقوته الشابة. ويقدّر إدراكه السريع الفرص ، ويخطط لما هو مطلوب. ولم يبالغ في تقدير وسائله والقوات المساندة له. وهو عربي ذو نفس منضبطة، وقادرة على الصبر. وأخيراً هو مؤمن بالهدي الإلهي، عند أداء واجباته الدينية.

٤- ابن سعود يبني مملكة أجداده

تم استرداد (الرياض)، وعاد (ابن سعود) الشاب إلى مدينة أجداده واعترف الناس به - فرحين - زعيماً عليهم. قام بتلك المهمة الصعبة بالطريقة المناسبة والمثالية. وكان الاستيلاء الأول على قلب (الرياض)، ونجح فيه بعد تخطيط حكيم، وشجاعة كاملة لا تقهر. ولكن حتى وإن صار مركز الدولة السعودية السابقة الآن في يد (ابن سعود)، فما هو إلا نقطة صغيرة على حافة واحة صغيرة من حدائق النخل، مقارنة بمساحة (الجزيرة العربية)، أو حتى بالدولة التي بناها (محمد بن سعود)، مثله الأعلى، قبل قرن ونصف.

كانت معرفته الإستراتيجية بالصحراء عاملاً مهماً لاسترداد (الرياض)، ولكن الأهم من ذلك الثبات على العزم، والقدرة على التحمل والشجاعة المبنية على الإيمان. وكان الحفاظ على المدينة أصعب من استردادها، وهو عمل يصبح مستحيلاً فعلاً إذا لم يتم استرداد المنطقة التي حولها أيضاً، لكسر حدة حصار (آل رشيد). وكان تأمين مخرج إلى العالم خارج (الرياض) ومدخل لتأمين الطعام والأسلحة، شرطاً للبقاء على الحياة. رأى (ابن سعود) بوضوح هذا الواقع ولم يسعد به. وكان (ابن رشيد) متأكداً من وقوع خصمه الشاب في فخ لا مفر منه بسبب تهوره. لذا لم يبادر إلى الهجوم، لأنه كان متأكداً من أن الزمن في صالحه. أدرك (ابن سعود) أن الانتظار كان لصالح خصمه الأقوى منه، وسوف يؤدي إلى موته وموت رجاله، حتى ولو كانت أسوار القصر الصحراوي المنعزل سميكة جداً. فأمر بإصلاح أسوار (الرياض) بسرعة، كما أمر بإعداد القصور داخل المدينة وخارجها. ولكنه كان يدرك أنه لن يستطيع أن يتغلب على خصمه القوي ما لم يقابله في الصحراء، حيث تستفيد جماعته الصغيرة، بل الصارمة، من إمكانية التحرك السريع والهجوم المفاجئ غير المتوقع، والانسحاب بالسرعة نفسها. في هذه الحالة فقط يستطيع أن يدافع عن المدينة الملكية ويوسع نطاق حكمه.

أرسل الرسل إلى والده (عبدالرحمن) في (الكويت)، وكان والده مستعداً للذهاب إلى ابنه فوراً، ومغادرة (الكويت) تلك المدينة الحارة الرطبة. فارتحل الوالد في هدوء عبر منطقة

الأعداء مستخدماً عدة طرق ومحاور، حتى يصل إلى البلد الذي ساده الاعتقاد الصحيح من أسلافه، وسوف يسودها من جديد، إذا بارك الله في هذه المحاولة الرائعة لابنه. ونجح في تفادي جنود (آل رشيد)، وانسل إلى (الرياض). ورأى أنه من الضروري أن يتولى ابنه الحكم رسمياً على مدينته القديمة. وعلى الرغم من ذلك لا يزال الوالد يشرف على ابنه ويعينه، مثلما يفعل كل شعب شرقي وإسلامي. وأعطى تصرفه هذا ثقة لشعبه، لأنه يوفي الأمير الشاب بهذا الشرف أمراً من الله.

تشرفنا بمقابلة (ابن سعود) وهو على قمة قوته تقريباً، إذ انضمت البلاد المقدسة (الحجاز) إلى مملكته. كان (عبدالرحمن) حينئذ شيخاً، وكان يرغب في زيارة (مكة) المطهرة. أخذ (ابن سعود) أول خطوة تؤدي إلى شعبيته في (مكة) عندما استقبل والده علناً. تقدم الملك إليه - ماشياً - وركب (عبدالرحمن) الحصان، وانحنى الملك ونزل على ركبتيه، وأمسك ساق والده، ووضع رجله على كتفه، خطا (عبدالرحمن) عليه أولاً، ثم وضع رجله على الأرض، وقام الملك وقبل والده باعتزاز، وأمسك يده، وقاده إلى مكان الاجتماع، قاد والده إلى صدر المجلس، ومضى هو إلى أبعد مكان في المجلس وبقي هناك طالما كان والده حاضراً. ليست هذه مسرحية، ولكنه أسلوب حياة، هكذا يراها شعب (الرياض) أولاً، ويقدر الأمير الشاب تقديراً عالياً، حيث إنهم يعرفون حمل الأمانة خلف رجل مؤمن.

بعد إعداد (الرياض) لصد أي هجوم، ارتحل (ابن سعود) بجماعته على عجل وبدأ حملة التوحيد جنوباً. حالما يستطيع أن يتغلب على بعض النقاط العسكرية المهمة (لابن رشيد)، تدعمه القرى والواحات جنوب (الرياض). لم ينجح دائماً في كسب الثقة التي تنمو في البدوي على نحوٍ بطيء، بسبب تلك المحاولات غير الموفقة التي قام بها والده. فالنجديون يؤمنون بالقوة فقط، ويرغبون في مشاهدة انتصارات حاسمة. ولكن (ابن رشيد) انزعج من هذه الاضطرابات وقرر إنهاءها. وعندما اقترب من (الرياض) أخبره جواسيسه أن المدينة مزودة بعدد من الجنود ومؤن كافية، وينبغي البدء في حصارها. ولم يكن لديه الصبر. عرف أيضاً أن خصمه ليس (عبدالرحمن) الشيخ، ولكن (ابن سعود)، الشاب. رابط (ابن رشيد) حول

المدينة وتابع أخبار (ابن سعود) الذي ارتحل جنوباً. وحالما سمع (ابن سعود) أن (ابن رشيد) يتجه نحوه، سار سيراً حثيثاً في جنح الظلام حتى أدركه على حين غرة متأهباً للمعركة. ظن (ابن رشيد) أنه يواجه جماعة بدوية غير منتظمة يستطيع رجاله تشتيتها وتدميرها في هجوم مباشر. ولكنه كان يواجه قائداً يقود محاربيه المتحمسين الشبان في صرامة وشدة تدهش رجال (ابن رشيد)، بل هزم جيش (ابن سعود) رجال (آل رشيد) شرّ هزيمة، وإذا هم يهربون من المعركة. هذه المرة كسب (آل سعود) ثقة النجديين الذين اختاروا جانبه باقتناع. ولكن (آل رشيد) كانوا محاربين أشداء، وإن كانوا حكاماً سيئين. فهم المنهزمون، وعليهم تقليل المجد المتزايد (لابن سعود)، فجمع (ابن رشيد) جيشاً بعد عودته إلى عاصمته ، وتظاهر أنه يتقدم إلى (الكويت). وأرسل الأمير (مبارك) مبعوثين إلى (الرياض) يطلب المساعدة. وهبَّ (ابن سعود) مباشرة لمساعدة صديقه القديم، الذي استضافه في فترة الأزمة. وما أن ابتعد (ابن سعود) عن (الرياض) حتى رجع إليها (ابن رشيد)، ولكنه وجدها في حالة استعداد طيبة للدفاع تحت قيادة (عبدالرحمن). وعندما سمع (ابن سعود) بالحيلة لم يذعر ولم يعد بسرعة، ولكنه هاجم مناطق نفوذ (ابن رشيد) وسلب قراه وحقق هدفه. كان جنود (ابن رشيد) يريدون العودة إلى بيوتهم لحماية عائلاتهم وممتلكاتهم. وتقلص عدد جنود (ابن رشيد)، مثلما كان يحدث للغزاة البدو إذا لم يظفروا بالسلب والنهب سريعاً، وهم يخشون الخطر على ممتلكاتهم. ودخل (ابن سعود) بلداً بعد بلد ، وانحاز الجزء الشمالي من (نجد) إلى جانبه أيضاً ، وبالتالي حظي بمساعدة نصف أهل (نجد).

وانسحب (ابن رشيد) بالعدد القليل المتبقي من رجاله إلى بلاده، منطقة (شمّر). هناك عرف أنه لا يزال قوياً، محاطاً بشعب مربوط به عن طريق تقاليده. لقد فقد أرض (نجد) التي عادت إلى زعامة (آل سعود) التي يكره شعبها (آل رشيد). وسوف ينتسب سكان نجد إلى (آل سعود) وهم أقوياء يحمون الناس ، ويقودونهم إلى النصر في الغزوات ، التي تحقق لهم السلب والغنى. لم تكن الفرص سيئة (لآل رشيد)، كما لم ينل (ابن سعود) أكثر مما يستحقه تاريخياً. ومن الواضح منذ عهد مبكر أن التنافس بين الأسرتين سوف يستمر، حتى

يصل إلى مرحلة الحرب والقتال. أنجز (ابن سعود) الآن المهمة لتحقيق الغلبة التامة. وأصبحت المنطقة بينهما (القصيم) الغنية بالواحات (عنيزة) و (بريدة)،التي تسمى حسب المعايير العربية مدناً، مسرحاً للقتال. انتمت تلك المنطقة إلى سلطنة نجد، وأهلها مؤيدون (لآل سعود)، ففي عام ١٩٠٣ ضم (ابن سعود) (عنيزة) و (بريدة) بعد تغلبه على رجال (ابن رشيد)، وبذلك ضم منطقة القصيم إلى سلطته.

كان (آل رشيد) تحت الحكم التركي اسمياً، بينما في الحقيقة لم يكن للدولة التركية الإسلامية حكماً إلا على حافات (الجزيرة العربية). وحاولت السياسة التركية المحافظة على تأثيرها عن طريق توازن القوى، بدعم الضعيف ضد القوي. وبهذه السياسة حاول الأتراك تفادي ظهور قوة كبيرة داخل (الجزيرة العربية) قادرة على معارضة الحكم التركي بصورة واضحة.

كان قلب الدولة القديمة تحت حكم (ابن سعود) وعندما تزايد مجده، اصطدم بتلك السياسة التركية القديمة داخل (الجزيرة العربية). ومفادها أن قوة (ابن سعود) تشكل خطراً على الحكم العثماني. كان طبيعياً أن يدعم الأتراك (آل رشيد)، وكان تقديم هذا الدعم من ضمن سياسة الحكم التركي ، حيث ارتبط السلطان (عبدالحميد) بقوة أوروبية جديدة ذات رغبات كبيرة في التوسع. وظن السلطان أن بإمكانه إبعاد (بريطانيا) باستخدام هذه السياسة، فإذا جعل (ألمانيا) تواجه (بريطانيا) فيمكن لدولته أن تحافظ على استقلالها ولو مؤقتاً. وإذا نجحت سياسته هذه يصبح مؤمناً ضد (روسيا) و(فرنسا). كانت كل الدول التي تطمح في مدّ سيطرتها إلى المنطقة العربية تمثل خطراً على الدولة العثمانية المريضة، والمتسعة إلى حدٍ فقدت معه كل وئام داخلي. بدا أن قدر (ألمانيا) أن تعارض الدول الأخرى، وألا تخشى استخدام قوتها. ودعمت (ألمانيا) السلطان الذي حلم بخط سكة حديد من (برلين) إلى (بغداد)، وكان من الضروري لتحقيق ذلك وجود مناخ من الهدوء والنظام في المناطق العربية الشمالية. بدأت السلطنة التركية ببذل جهودها الأخيرة قبل سقوط حليفها الألماني خلال الحرب العالمية الأولى. فأرسلت جنوداً كثيرين إلى (اليمن) و(الحجاز) ودعّمت الجيوش

الموجودة في (بغداد) و(الأحساء). وكان ثمرة ذلك إنشاء خط السكة الحديدي من (دمشق) إلى (المدينة). واستطاع السلطان (عبدالحميد) أن يعلن أن إنشاء هذا الخط الإستراتيجي موجه لعملٍ ديني يخص العالم الإسلامي كله؛ لأنه يخدم الآلاف من الحجاج قاصدي الأماكن المقدسة في (الحجاز) كل سنة. وتم إنشاء الخط ، ودُفعت تكاليف الإنشاء من إسهامات المسلمين المالية تارة بصورة اختيارية (تبرعات)، وأخرى في شكل زيادة في الرسوم والخدمات.

كان من الممكن أن يصبح (ابن سعود) خطراً على السياسة التركية، ولذا لم تسمح (تركيا) بنمو قوته إلى حد يبلغ درجة الخطر. وعندما طلب (ابن رشيد) دعماً قدمت (تركيا) له الدعم المطلوب. وصدر الأمر إلى والي مدينة (بغداد) بتوجيه جنود أتراك لمساعدة (ابن رشيد). واجه (ابن سعود) في بداية الصيف من عام ١٩٠٤م خصماً جديداً في شكل جنود أتراك مدربين تدريباً غربياً ومزودين بالمدافع. انتصر (ابن سعود) على جنود (ابن رشيد) البدو، ولكن فشلت حملاته الشجاعة في التغلب على الجيش التركي المنظم الذي يحارب بتشكيل عسكري متقدم. وجرحته شظية قنبلة أثناء المعركة الأولى مع الأتراك ، وكاد الذعر يقع بين رجاله. ولكن الحرب كانت صعبة على خصمه أيضاً، ولم يفكر في مواصلتها. فإذا شفي (ابن سعود) بسرعة فسوف يغتنم فرصة أخرى. ولا أحد غير البدوي يحتمل الرجوع عبر الصحراء في حرارة الصيف. ونظّم (ابن سعود) رجاله سريعاً، على الرغم من جرحه ، وبدؤوا يناوشون الجنود الأتراك المرتدين بدلاتهم العسكرية السميكة، والحاملين أسلحتهم مثل سرب من النحل. بدأ (ابن سعود) يهاجم في اللحظة المناسبة، ثم ينسحب. وكان يركب حصانه على رأس حراسه، ويقال: إنه كان يفخر وينادي باسم أخته المحبوبة (أنا أخو نورة!)، فيقتحمون وسط الجيش التركي الذي ينكسر مربعه هذه المرة. وحتى لو غيرّ الأتراك خطتهم، وأرادوا الرجوع، فليس لديهم وسائل تقلهم ولا مياه للشرب. وبذلك دخل اليأس في قلوب الجنود الأتراك، ووصل بعضهم قاعدتهم (بالبصرة) فقط. وانتصر (ابن سعود) على جيش الدولة المزود بأسلحة غربية. ولم يتوقع رجاله ولا أئمة (نجد) ذلك النجاح، ولكنهم كانوا

يعتقدون أن النصر الكامل قريب. ولكن (ابن سعود) يعرف طول ذراع الدولة التركية ويعرف أن هذا النجاح بداية وليس نهاية فلا يعميه الغرور. ويبدو المنهج الذي اتبعه (ابن سعود) فيما بعد مراراً، وهو قبول الصلح، والالتزام بعهد وميثاق كريم بعد النصر، حيث إنه يدرك وجود خطرٍ خلف الأفق. لعب (مبارك)، أمير (الكويت)، دور الوسيط الذي طرح فكرة الصلح على والي (البصرة). واعترف الأتراك (بابن سعود) حاكماً على (نجد)، بالإضافة إلى ولايته القديمة على منطقة القصيم، بشرط أن يسمح لهم بحامية صغيرة من الجنود في كل من (عنيزة) و (بريدة). وبذلك يحافظون على بقائهم ويمنعون (ابن سعود) من الانتقام المباشر منهم أو توجيه ضربة ربما كانت قاضية. ناورهم (ابن سعود) وقال : إن (القصيم) منطقة غير مأمونة للجنود الأتراك ، بحيث لا يستطيعون التنقل فيها إلا في جماعات. ونتيجة لذلك أصبحت منطقة (القصيم) عزيزة على وجود الأتراك، وانسحبوا أكثر فأكثر من وسط (الجزيرة العربية) ، ولم يرجعوا إليها. حينئذ أدرك (ابن سعود) أن الأتراك قد انهزموا.

ولأن (ابن رشيد) ما يزال موجوداً، فلم يؤخر (ابن سعود) قتاله ، فقد كان (ابن سعود) قائداً مثالياً ذا طاقة كبيرة ، وحاجته إلى الراحة قليلة ، ونشاطه العقلي واسع. فبحث عن الفرص المناسبة للهجوم على (ابن رشيد). وحدث مرة أن (ابن رشيد) عاد من غزوة ، وخيم مع رجاله المنهكين قرب المكان المسمى « روضة مهنا»، فبادر (ابن سعود) إليه خلال سير ليلي سريع ، وهجم عليه عند الفجر، وهو الوقت الأمثل للهجوم الصحراوي غير المتوقع ، وأصيب (ابن رشيد) بطلق ناري، ولم يكن من خلفه. وكان من الطبيعي أن يُدمر (آل رشيد) من داخلهم ، بسبب الحسد وصراع الإخوان والغدر. ومع ذلك لم يعان (آل سعود) في هذه الفترة من مرض الانتقام من الخصوم، أو الطموح إلى القوة الغاشمة ، وازدراء الحياة الإنسانية، حتى وإن اتصفت الحياة البدوية بهذه الخصال.

انتهى خطر (آل رشيد). وبنى (ابن سعود) قواعد مملكته ، لكن تلك القواعد لم تكن ثابتة سواء من الخارج أو الداخل. فلا تزال أمراض المجتمع البدوي موجودة وكامنة، وسوف تظهر من حين إلى آخر ، حين يُقتل القوي بسيف العدو ، أو برصاص الفاتك ، أو بالسم في الشراب

المقدم من صديق حاسد. ويتضح أن إمارة (آل رشيد) لم تكن أكثر من بنية بدوية بلا أعمدة أو قوة رابطة سوى قوة الحاكم، وهي بنية بلا جذور في أرض خصبة، كما هو الحال دائماً في المجتمع البدوي.

ولكن المملكة التي بناها (ابن سعود) كانت خلاف ذلك. لقد بنى أسلافه حكمهم مستخدمين الإيمان الصحيح (بالله) وعبادته وسيلة للربط، ومع ذلك بقيت بنية حكمهم حوالي قرن واحد فقط من عمرها. أين يكمن سبب فشلهم؟ لا بدّ أن هذا السؤال كان يشغل (ابن سعود) خلال ساعات الليل بعد قراءة القرآن وهو ينتظر صلاة الفجر وإيقاظ الآخرين. كيف تحول من رئيس بدوي لا يكل في المعارك، إلى رجل إستراتيجي ينتصر على الأتراك، ويعرف طباع الناس، رجلٌ وحدّ القبائل وجمعها؟ يمكننا أن نفترض ونقدر هذا النمو بدراسة الوقائع التي كُتبت عنه أو روت لنا أو اختبرناها شخصياً معه. من يستطيع وصف نمو إنسان، خاصة إنسان مؤمن، فقط بالمعلومات التي أمامه؟ إننا نواجه الخطر إن حاولنا أن نشرح ما لا يمكن أن يشرح. عَمِل (ابن سعود) ما كان ضرورياً في ذلك الحين، وكان ذلك عملاً كبيراً. أدى واجبه بشجاعة وقوة وحسن إدراك. وتضمن حسن إدراكه فهم طبيعة البدو والمجتمع الصحراوي، ولكنه فهم كذلك ما كان خارج هذا النطاق ، فهم السياسة العالمية وأدهش المشاهدين وأعجبهم بفهمه، وبناء على ذلك أصبح شخصية رائعة. أثر بكلماته وصورته في الغربي والشرقي على السواء.

ننتقل بحكايتنا إلى الأمام حيث إننا نريد أن نترك السنوات الطويلة التي انهمك فيها (ابن سعود) في معارك شرسة ضد خصومه الذين كان جاهزاً لمواجهتهم، وضد خيانة بعض أصدقائه الذين ساندوه أثناء الفترات الصعبة الماضية. إن هذه الوقائع تكّون الناحية الظاهرة والمادية فقط. ولكننا نعتبر الناحية الباطنة الكامنة (الروحية) أهم من الناحية الظاهرة. ولا يكفي الحديث الخاص ببناء مملكة الأسلاف - حتى وإن كان مختصراً - إذا لم نشر إلى القاعدة الروحية التي بنى عليها (ابن سعود) مملكته وهو مثل (محمد بن سعود) الذي وضع سيفه تحت تصرف شخص غير حاكم بل مصلح ديني. ويبدو أن تأسيس دولة،

حتى في (الجزيرة العربية) المعاصرة، فوق عصبيات القبائل أمرٌ ممكن بناء على هذه القاعدة فقط. وقد أعطى سيدنا (محمد)، المثال على ذلك حين أحل الرابطة الدينية محل العصبية القبلية، فانكسرت الحواجز القوية الخاصة بكل قبيلة، وتفوق الإخلاص (لله) و(لرسوله) على الإخلاص للعائلة والقبيلة. إن المعجزة التي قام بها (محمد) (عليه الصلاة والسلام)، في فصل هذه القبائل وتحريكها في (الجزيرة العربية) معجزة غيرت وجه (الجزيرة العربية) ، والعالم المحيط بها كله، وترتب عليها انتشار الإسلام.

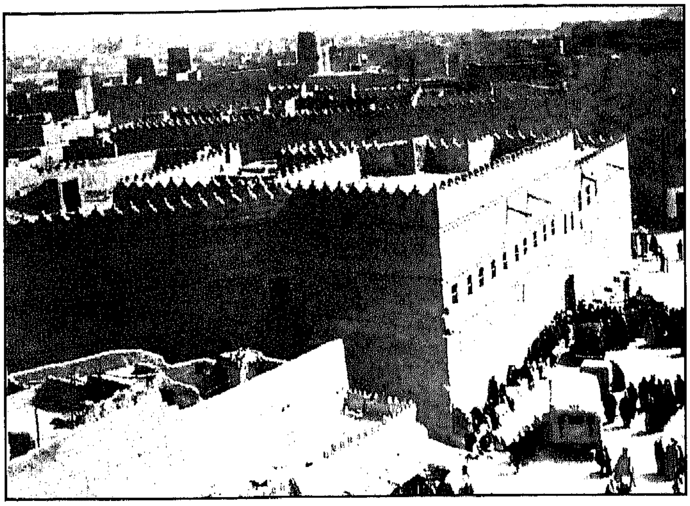
تكررت هذه العملية على نطاق ضيق من قبل رجلين، داعية ديني هو: (محمد بن عبدالوهاب)، وسياسي عسكري وهو (محمد بن سعود). وكان الإيمان فعلاً هو القوة التي بنت دولة في (جزيرة العرب). الإيمان المتحمس، الذي ينتشر بقوة السيف حيث لا يمكن نشره بالكلمة والدعوة الحسنة [1].

تعلم (ابن سعود) هذا الدرس من تاريخ بلده وأسلافه. لا يوجد (محمد بن عبدالوهاب) بجانبه الآن، ولكنه يعرف في نفسه إيمان الداعية المتحمس للتوحيد. هذه هي قوة حياته، وأساس اتجاهه ، ومرشده الرئيس لضبط النفس ، وكذلك سبب اعتزازه وانضباطه في الوقت نفسه.

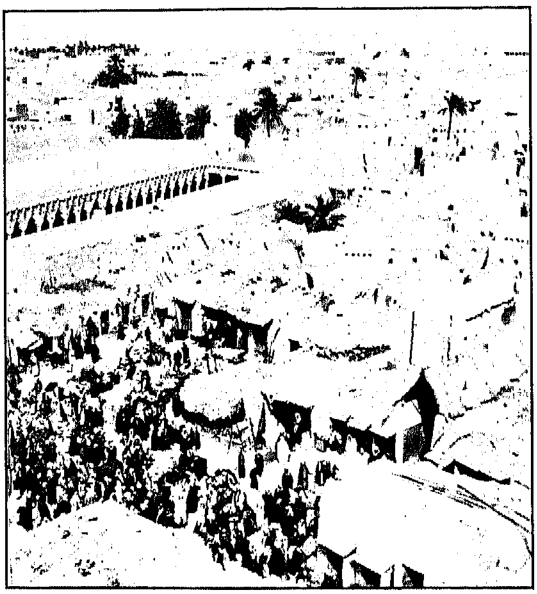
تكونت نواة جيشه من الرجال الذين يرونه إماماً لهم، يجمع بين الجوانب الروحية والدنيوية، وكانوا يثقون به ، لأنه سلفي من تلاميذ الشيخ (محمد بن عبدالوهاب) .

بمساعدتهم سوف يعيد (ابن سعود) الجانب الروحي، إلى شعبه ويعمقه ويربطهم في اتحاد كبير، اتحاد المؤمنين الذين لا يضعون شيئاً بجانب (الله)، والذين ينظرون إلى ما أمر (الرسول) به وإلى هديه. ويشعرون بأنهم الصفوة الروحية التي تتبع إمامها بلا جدال أو سؤال عندما ينضمون إليه مزودين بالحماس الديني.

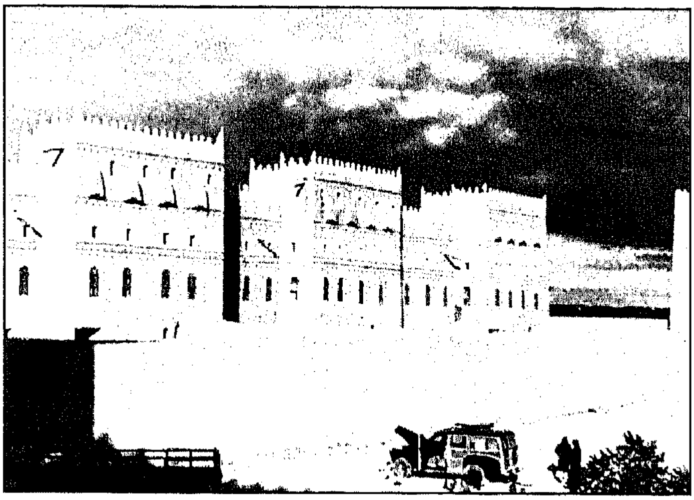
(١) ما رآه المؤلف هنا مطابقاً للرؤية الغربية – في الغالب – عن الإسلام وأن انتشاره تم فقط بالقوة، والصحيح أن الإسلام انتشر بالسلم والدعوة الحسنة أولاً. وما حدث في عهد الدولة السعودية الأولى أيضاً يتطابق مع هذه الحقيقة.



١١- منظر لجانب من قصر الحكم (الرياض).

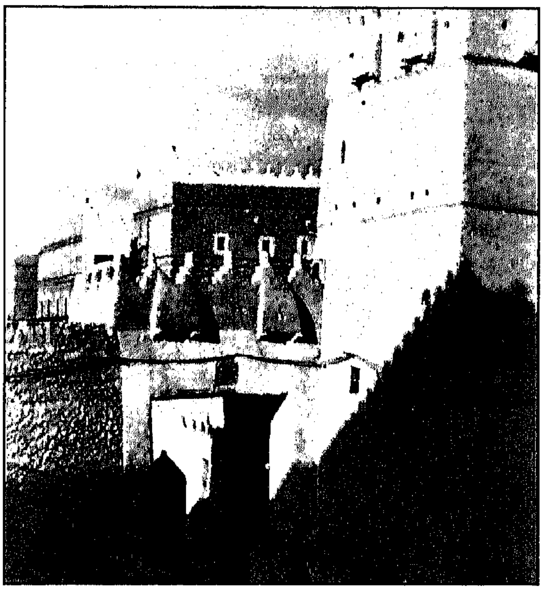


١٢- منظر للسوق القديم (الرياض).



١٣- زاوية لمجموعة القصور (المربع) تبعد بضعة كيلومترات عن (الرياض).

تحاط المدينة بسور طيني مزود بـ٢٢ برجاً.



١٤-مدخل قطاع القصور.

وهكذا تنشأ قوتان في الدولة الناشئة : قوة مرتبطة بالجذور . وقوة دافعة - يستحيل التغلب عليها - متجهة إلى الخارج.

ويتبع العلماء مذهب (أحمد بن حنبل) وتلميذه الكبير (ابن تيمية) ، ويرون أن دعوتهم سوف تسود مع (ابن سعود) الذي يقدمون له دعمهم الخالص وحماسهم. ويعرف (ابن سعود) كيف يستفيد منهم دون أن يؤثروا فيه تأثيراً كبيراً، ويبقى رئيسهم. ويبقى آل الشيخ (محمد ابن عبدالوهاب) في مقام مرموق في حكم (ابن سعود). فهم العلماء ونُصّاح الأمير، وهم مراقبوه في الوقت نفسه. يهيمنون على التعليم الديني . وهذا يعني الدراسة الابتدائية بالكامل. ويقومون بدعوة وتعليم القبائل الدين الصحيح. ويقفون خلف (ابن سعود) بدعمهم الكامل طالما تأكدوا من أنه يقود شعبه كما أمر (الله)، ملتزماً ومستقيماً أمامهم في بساطة وتواضع. ولكن خبرتهم محدودة فيما يتصل بخارج (نجد) . وكان لا بدّ له من الاستماع إليهم عند أخذ قراراته السياسية المهمة أو إقناعهم عن طريق حجج قوية، فلم يكن هناك مساعدون أفضل منهم من ناحية دعمهم الداخلي ، وبناء الوحدة القوية الشامخة فوق الخصومات والأحقاد، والمتفوقة على منافسة القبائل والحساد.

لم يكفه ذلك الدعم الذي كانت قاعدته دينية، والذي أصبح به (ابن سعود) الإمام الروحي والرئيس الدنيوي. فكان (ابن سعود) يحتاج إلى دعم آخر، هداه تأمله خلال الليالي إلى مفهوم عبقري، فهو يعرف أن البدوي المرتحل قلق ولا يوثق به داخل دولة مستقرة. فإذا داوم البدو على ارتحالهم فلن يتركوا غزواتهم، رياضتهم الخشنة، وستبقى الدولة في قلق وفقر وبلا أمان. ولم تغير دعوة (الدعاة) ذلك ولن تغيره؛ لذا حاول (ابن سعود) تحويل قوانين الصحراء الموغلة في القدم إلى رغبته. فعمل على إجبار القبائل البدوية الرحل على الاستقرار في أراضٍ خصبة بالقرب من آبار غنية بالماء. وبذلك يتحولون من رعاة إلى فلاحين، من سادة الصحراء الأحرار، فقراء وكسالى ، إلى أثرياء ، ولكنهم عمال على الأرض وظهورهم منحنية. سوف يصبحون سكان البيوت الطينية بدلاً من الخيام، بالاختصار سوف يتحولون إلى ذلك الإنسان الذي يحتقره البدوي. ويبدو أن (ابن سعود) نجح في خطته التي لم يكن باستطاعة

أي حاكم قبله تنفيذها. مرة أخرى يطرح (ابن سعود) هذه الخطة عن طريق الدين. ويؤسس فكرة الإخوان، «الإخوان في الإيمان». ويصبحون أناساً جداً قادرين على القيام بأمور جديدة عن طريق الإيمان الذي دعا إليه (محمد بن عبدالوهاب)، ويرشدهم عن طريق الدعاة إلى آداب الإسلام. ويربطهم هذا الإرشاد إلى وحدات. وهذا مصدر حماسهم ويصبحون به أفضل الجنود، وبالإضافة إلى ذلك سوف يتحولون به من بدو إلى فلاحين. وكلما كانت هناك معارك، فلا بدّ من مساعدة الإخوان في أول الأمر، ولكن ما دامت هناك مغامرة وجهاد في حياتهم ، وما دام هناك سلب ونهب فكيف يتحولون إلى حياة فلاح الواحات المملة. ويبدو أن فكرة الإخوان نجحت نجاحاً تاماً.

إن عدداً ممن كتبوا عن (ابن سعود) خلال فترة نهضته ذكروا أنه استحق أن يكون العربي الأكبر بعد النبي (محمد)، نظراً لما حققه بهذا الاستقرار، أي تحويل البدو إلى فلاحين، كانت التوقعات بالنسبة « للأرطاوية »، مقر قبيلة (حرب) تحت شيخهم (سعد بن متعب) كبيرة، ولكن لم يبق من مجدها إلا ذكرى، وكان ذلك عقب نظام الإخوان في هذه الهجرة.

حذت قبيلة (مطير) حذو قبيلة (حرب) وأسست هجراً زراعية تحت رئاسة شيخهم (فيصل الدويش) بعد استسلامه إلى (ابن سعود) وإبرام الصلح معه. عرف (ابن سعود) ملكة الرئاسة لديه، وضمه إلى المهمة الجديدة عن طريق بث ثقته فيه، فعينه شيخاً على (الأرطاوية) وبذلك أصبح أحد رؤساء المقدمة في جنود الجيش.

وجه (ابن سعود) اهتماماً شخصياً بهجر الإخوان. كلف الفلاحين الساكنين في الواحات سابقاً بتدريب البدو على استصلاح الأراضي، وإنشاء شبكات الري. وبُنيت المساجد على نفقته. واجتمع الرجال لتأدية الصلاة بالمسجد خمس مرات في اليوم، وبقوا كذلك تحت الإشراف المباشر، والتأديب الروحي من قبل الدعاة.

أصبح أسلوب الحياة الجديدة ومهمة استصلاح الأراضي وزراعة المحاصيل في وقت السلام، والجهاد في سبيل الله عندما يدعوهم إمامهم لذلك - جزءاً من حياتهم الجديدة ، ومن

التوجه إلى لله. كان كل همهم القيام بهذه المهمة ، مسلحين بقوة الحماس الإيماني. كان الدعاة أنفسهم معلمي الشباب. وعلى كل حال كان الشباب تحت إشراف الدعاة ، لأن الشباب كانوا يحفظون القرآن الكريم، ويدرسون اللغة العربية الفصيحة، حتى يستطيعوا القيام بشعائرهم الدينية. هناك ظهرت وجوه جديدة للحياة ، وكانت الإمكانات متاحة لتحويل البدو إلى أناس يقبلون نظام العمل الدوري والدراسة قبولاً بصدق وإيمان.

انتبه (ابن سعود) كذلك إلى اختلاط القبائل بسكناهم في هجر الإخوان، وحرص على ربط هذه الهجر المختلفة بالمهمة العامة الموجهة إلى نشر الإيمان النقي. وقوي تأثير الإخوان بصفة خاصة نتيجة لجهادهم الذي هداهم إلى سبيل (الله). وشعروا بأنهم كانوا صفوة ذات هدف متفوق على مجد القبيلة. وكانوا يشعرون بأنهم مكلفون بمهمة إلهية، ولم يواجهوا مشكلات. كان سبيل الله طريقاً لهم، وهو واضح ومستقيم ولا يقاوم. كانت فترات الراحة خلال مهمتهم بصفتهم مجاهدين ممتلئة بالعمل الزراعي عند الآبار ، وعلى أراضيهم الزراعية الجديدة. وحتى لو تصادم هذا العمل الزراعي مع طبيعتهم البدوية تحملوه نظراً لارتباطه بالجهاد، أجمل عمل قد يتخيله الرجل منهم . كانت فترة طيبة استطاع (ابن سعود) أن يبني من خلالها مملكة أسلافه من جديد.

أصبح الإخوان الذين يُسمح لهم بوضع رباط أبيض حول غطاء الرأس بدلاً من العقال الأسود، الجنود الأقوياء (لابن سعود)، وصفوته التي لا تخاف أي شيء. أصبحوا متمسكين بالدين وملتزمين به بشدة. سبقتهم سمعتهم عندما أصبحت أواسط (الجزيرة العربية) ضيقة على (ابن سعود)، واختبر الناس خارج هذه المنطقة حركتهم الثانية التي أخذت سبيلها إلى شواطئ (الخليج) و(البحر الأحمر).

وكلما قويت الدعوة الجديدة، شغل الإخوان مكانهم في مقدمة الجيش، الذي سار من نصر إلى نصر. وأصبح تحويلهم في وقت السلم إلى العمل في زراعة الواحات أمراً مستحيلاً. وأصبحت السيطرة عليهم صعبة حتى للرئيس الذي شكل تنظيمهم وعمل منهم المثال المبسط

للجيش. وعندما أمرهم بالتوقف عن الطريق الذي سلكوه تمردوا عليه. ومرة أخرى يظهر تفوق (الملك عبدالعزيز) الذي ما زال قائداً. وضربت يده القوية رئيسهم (فيصل الدويش)، وواجه أتباعه عندما ثاروا عليه.

لم يصل (ابن سعود) إلى هذا الحد من التفوق إلا بموجب صبره الكبير ومجهوداته العظيمة ومستشاريه الحكماء، رافقته خيبات أمل مأسوية في رحلة حياته، و لم يحقق هدفه بعد ، حتى لو تقدم تقدماً كبيراً. وثبّت من جديد إطار مملكة أسلافه خارجياً وداخلياً وأنشأ قاعدتها. وكان من الممكن مواصلة الإنشاء. إلا أن الحرب العالمية الأولى أعطت نتائج غير متوقعة استفاد منها (ابن سعود) وخصماه الجديدان في (جزيرة العرب)، (الحسين بن علي)، الشريف في مكة، والإمام (يحيى حميد الدين) الحاكم في اليمن.

٥- يقابل بريطانيا

من الصعب تقسيم حياة (ابن سعود) إلى فترات واضحة. فقد كانت حياته قتالاً مستمراً ومصاعب ومشكلات. ولم تكن انتصاراته دائمة بل واجه أيضاً هزائم ، ولكن ميّزه الاستمرار الصارم والحذر الدائم. كان سر قوته إيمانه بالهدي الإلهي في حياته. هذا ما أعطاه الصبر، خلافاً لمن كان ينخدع ويظن أن هذا الصبر ضعف. وكان ينتظر اللحظة المناسبة ليفاجئ خصمه غير الحذر ويقضي عليه. وبموجب إيمانه استطاع كذلك تطوير طاقته ، واتخاذ قراراته بعقلٍ وروية، عندما فشل في كل شيء، وحينما كان أتباعه على وشك اليأس، ومنع بذلك حدوث كارثة مدمرة.

كانت توجد علامات كالحدود على طريقه الصعب إلى هدفه. قابلته صعاب جديدة، وقوات محاربة يلتقي بها إذا حاول بسط نفوذه إلى خارج حدود صحراء (نجد)، وعندما لم يستطع السيطرة على جنوده من الإخوان، داخل تلك الحدود، عند ذلك واجهته قوة العالم الغربي في ذلك الزمن (بريطانيا).

دام القتال مع خصومه من القبائل البدوية، كما بحث من تبقى من (آل رشيد) عن حلفاء جدد، ووجدوهم بين خصوم (ابن سعود) وأصدقائه الذين غدروا به. واتضح التأثير من خارج (جزيرة العرب) أكثر فأكثر، فكلما اشتد الصراع السياسي في (أوروبا)، انقسم المتنافسون هناك إلى فريقين، فالحسد حتى في (أوروبا) يسبب الانقسام. كانت (أوروبا) تحسد (ألمانيا) التي ظهرت على الخريطة العالمية متأخرة، وتسعى لإغناء نفسها بمستعمرات، أو امتلاك طرق تجارية في العالم، كما فعلت (بريطانيا) ببراعة. وكانت (لبريطانيا) سيطرة عالمية ولكنها لم تعد قادرة على تحمل مسؤولياتها بمرور الأيام. وكانت (ألمانيا) محتاجة لأسواق ، لاستيعاب صناعتها ، وسدّ حاجة شعبها المتطلع للمجد والقوة.

تعرف (الجزيرة العربية) (بريطانيا) التي كانت طرقها التجارية تمر عبرها وحولها للوصول إلى (الهند) وإلى مستعمراتها الأخرى، والتي كانت تولي أهمية كبرى للسيطرة على تلك

الطرق في (الجزيرة العربية)، كما أضافت إلى هذه السيطرة على الطرق تدخلها في شؤون (الجزيرة)، وتقييد حريتها.

أما (ألمانيا) فهي دولة لم تكن معروفة في (الجزيرة العربية) سوى أنها بلدٌ بعيد وقوي جداً ولا يهاب معارضة (بريطانيا) وهزيمتها، كما أن (تركيا) تدعمه. و(تركيا) لا تحب (جزيرة العرب)، ولكنها معروفة في (الجزيرة العربية) كلها. والعرب لا يفضلون الأتراك، وينظرون إليهم باستياء ، حيث إن العرب كلهم تعرفوا على حكم الأتراك الفاسد عن قرب وبعد. ويُسمّون « الإخوان » ، لأنهم – أيضاً – شعب مسلم، وهم ورثة الخلافة الإسلامية، ولكن كانت إدارتهم السيئة ، وبعدهم عن الإسلام غير مقبول . ولو كان للعربي أن يختار بين مسلم ومسيحي فهو يختار المسلم، وبالتالي يختار القوة المتصلة به، التي تعارض الإنجليز وقد تتغلب عليهم.

واجه (ابن سعود) هذا الاختيار أيضاً. وكان مندوبو (ألمانيا) المدعومون من قبل الأتراك نشيطين جداً، وبحثوا دعم رؤساء القبائل العربية عن طريق تقديمهم المال والوعود. وأرادت (ألمانيا) معبراً برياً إلى (الخليج) وإلى (الهند) وما بعده، معبراً يمكن الدفاع عنه. وكانت (جزيرة العرب) محوراً لكل طرق التجارة العالمية . وأدرك (ابن سعود) هذه الحقيقة ، بناء على خبراته في قصر الأمير (مبارك) (بالكويت). ونضج هذا الإدراك خلال قتاله مع (الأتراك) و (آل رشيد)، وكان يسأل نفسه: أي موقف يجب أن أختار؟!

يجذبه الحياد ، مع أن أصوات الجانب التركي – الألماني تغريه. ويفضل مناقشة الموقف مع القادة والرؤساء الآخرين داخل (جزيرة العرب)، ويقوم ببعض المحاولات، فيناقش الوضع أولاً مع (مبارك) الذي أصبح كبيراً في السن. ويذكر صوته الأبوي بألم، ويعيده إلى شبابه في محنته أيام لجوئه إلى (الكويت). يغبط (مبارك) (ابن سعود) على إمارته (نجد)، التي أصبحت أكبر بكثير من (سلطنة الكويت) الصغيرة ، بالإضافة إلى أنها مستقلة فعلاً. وينصحه (مبارك) بالحياد وعدم المشاركة في لعب الشطرنج السياسي الخطر لكبار العالم.

وينظر (ابن سعود) إلى (مبارك) ويشعر من خلال هذه النصيحة شبه الأبوية بالدافع الفعلي (لمبارك): إنها رغبته في إبعاد (ابن سعود) عن هذه اللعبة ، وبقائه في (صحاري الجزيرة) حتى ينساه. ويستنتج من مناقشته مع (مبارك) ، معّلمه في شبابه، أي اتجاه يجب أن يتجنبه.

يعاود الاتصال – كتابة – برجال آخرين ذوي مقام في (جزيرة العرب)، فيرد (الحسين) العبقري، شريف (مكة)، وأبناؤه ساخرين على هذا الذي يبشر بنجاح الدعوة السلفية. اصطدم بالسياسة البريطانية مراراً، بشكل مؤلم، وثار عليها في بعض المرات، ولكن من غير خلافٍ جدي أو دائم. سألنا الأمير (ابن سعود) – الذي كان ملكاً في ذلك الحين –عن علاقته بالسياسة البريطانية في (الجزيرة العربية)– وكانت فترة وقع خلالها خلاف حول حقوق المراعي بين القبائل الساكنة في مناطق الحدود بين (العراق) و(الأردن). وحمت (بريطانيا) أبناء عدوه ، الملك السابق (لمكة) الشريف (الحسين) الذي حكم هذه المنطقة بمساعدة (بريطانيا). وعرفنا أن الملك واجه في تلك الفترة المأساوية صعوبة شديدة اضطرته إلى معارضة مؤيديه المتحمسين بشدة ، وعكس شعوره بالعدل إذ أراد تفادي الاصطدام (ببريطانيا) ، فقال مجيباً عن السؤال السابق :– « كرهت السياسة الإنجليزية مراراً، وأكرهها الآن، ولكن أرسلت الحكومة البريطانية رجالاً إليّ أصبحوا أصدقائي وظلوا أصدقاء».

وقال أيضاً : « ما دمت حياً فلن تقع حرب بين (الجزيرة العربية) و(إنجلترا) بموجب الصداقة بيني وبين كثير من الإنجليز وليس بموجب السياسة البريطانية». ومنهم : (فيلبي) ، و(السير جلبرت كلايتون) ، و(السير برسي كوكس) ، والنقيب (شكسبير) [1].

(١) كانت سياسة الملك عبدالعزيز تجاه بريطانيا واضحة إذ لم يستسلم لها أو يخضع لنفوذها وإنما تعامل معها من منطلق القوة وباستخدام الدبلوماسية الذكية.

واستمر (ابن سعود) في اتصاله الدبلوماسي (ببريطانيا) حتى عندما وضعت « صخرة الإزعاج » الكبيرة ممثلة في الدولة اليهودية في (فلسطين)، البلد العربي الإسلامي.

لم يكن (ابن سعود) قد حدد موقفه بعد عندما انفجرت الحرب العالمية الأولى، مثل قصف الرعد في السماء الصافية. وهداه تفكيره للحفاظ على الحياد في هذه الحرب بدلاً من أن تنضم (الجزيرة العربية) إليها مباشرة. وأدرك ذلك ، ولكن عليه الاختيار. وكانت السيطرة العالمية البريطانية على الأحداث قد وضحت حينذاك. وأفسح الحكام العرب والأتراك الطريق لسفينة حربية صغيرة كانت قد أرسلت لتقوية التحذير البريطاني، ولكن (تركيا) كانت قد تلقت الدعم الألماني العظيم، وهي قريبة من (تركيا). بينما (بريطانيا) كانت مضطرة لإرسال الدعم من (الهند). وانتظر (ابن سعود) مؤقتاً ، بينما انحاز خصومه في (الجزيرة العربية) ، واستعدوا لمهاجمته مستفيدين من الدعم الألماني الجديد. وبادرت (بريطانيا) إلى الخطوة التي عرقلت الخطة تماماً. وأنزلت جيشاً في بداية عام ١٩١٤م (بالفاو بالخليج). وطارد اللواء البريطاني الجنود الأتراك ، واحتل (البصرة) ، واقترب من (بغداد). ورأت قيادة الجيش البريطانية أنها أخطأت ، وأن اندفاعاً سريعاً إلى قلب (تركيا) لن ينجح ، نظراً لتدعيم الجيش التركي بضباط ألمان وأسلحة حربية حديثة وثقة عسكرية ألمانية. وكان لا بدّ للواء البريطاني -الذي حُصِر جيشه- من الاستسلام بكل جنوده. وعززت (بريطانيا) دعوتها إلى (ابن سعود) لمساندتها، ولكنه لم يستجب رغماً عن وعودها الجميلة. وترك الاختيار للشريف (الحسين) الذي أحدث في (مكة) انقلاباً ، ويستغل الوضع الحرج (لبريطانيا) للحصول على وعود أكبر لو قام بالمساعدة. ويعرف (ابن سعود) من خبرته أن الشخص في حالة الطوارئ يَعِدُ بكل شيء ، حتى يحصل على المساعدة المطلوبة، وحالما تنتهي حالة الطوارئ ينسى ما وعد به. بالإضافة إلى ذلك أصبح خصوم (ابن سعود) أقوى ، بناء على الدعم التركي - الألماني، ويحتاج إلى الحذر الشديد لمواجهة الخطر من هذا الجانب، فمن الممكن تأجيل المفاوضات مع البريطانيين. ويقبل بوجود بعثة سياسية - عسكرية بريطانية تراقب الأوضاع، وهي مقبولة نظراً لدعمها المالي والعسكري. وتقدم (ابن رشيد) حاكم (حائل) مدعوماً بالمال والسلاح من (تركيا) إلى (نجد) لمنع تدخل (ابن سعود) الصديق المحتمل (لإنجلترا)، ولم يكن (لابن سعود) مفر إلا جمع جنوده ومواجهة المهاجمين.

وطلب النقيب (شكسبير)، رئيس البعثة البريطانية من (ابن سعود) السماح له بمشاهدة هذه المعركة الصحراوية بالطريقة البدوية التقليدية. وكان الجنود المشاة في الوسط والفرسان على الجانبين، ممتدين في خطوط رقيقة طويلة، هكذا كان الهجوم حسب العادات القديمة. ولا يلبث أن يتحول معركة رجل ضد رجل. وهاجم فرسان الطرفين وعبروا الخطوط وازدادت الفوضى. ودام القتال عدة ساعات بلا رحمة. أخيراً تراجع النجديون بطيئاً، وحالما لاحظ فرسان قبيلة (العجمان) الانسحاب البطيء فقدوا أملهم في السلب، فعادوا وسرقوا المعسكر الذي كان معسكرهم سابقاً. ورأى (ابن سعود) خطر انهيار أحد أجنحة جيشه فأسرع لسدّ الثغرة. لم يُجدِ حزمه ونداؤه الطويل. وقاوم الإخوان إلى آخر لحظة، ونجا (ابن سعود) من العدو. ورجع إلى (الرياض) مهزوماً . وأظهر (العجمان) انقلابهم ضده مرة أخرى، وكان عليه أن يصبر، ولكن سوف يشعر (العجمان) بتأديبه لهم مستقبلاً.

شاهد النقيب (شكسبير) معركة بدوية حقيقية ، ولكنه لم يكن جاهزاً لأسلوب الهجوم السريع والتراجع الأسرع. فقواعد هذه المعركة تختلف عن قواعد الحروب الغربية، حيث لا بد من توفير الدم في الصحراء. والسرعة والمفاجأة والبراعة أهم من المحافظة على الموقع، ولذلك قتل النقيب (شكسبير) في هذه المعركة بسبب تأخره في الانسحاب.

انهزم (ابن سعود) ولكن خصمه (آل رشيد) دفع ثمناً مرتفعاً لانتصاره ، ولم يستطع مواصلته. ولم يرجع المندوب البريطاني، الذي صار صديقاً تحت هذه الأوضاع الصعبة. ومن هذه المعركة لم يعرف (ابن سعود) حينذاك أن نائب رئيس البعثة سوف يلعب دوراً مهماً في حياته، وسوف يصبح مساعداً له ولشعبه بإخلاص ونشاط وجدية في العمل ، لم يعرف ملك أو شعب عربي مثيلاً لها من قبل.

هنا يظهر رجل في تاريخ (ابن سعود) وتاريخ المناطق غير المعروفة (لجزيرة العرب) الوسطى، ويرتبط قدره بقدرهم الشخصي. ويرى في (ابن سعود) مثال العربي الكامل في ذلك الوقت، ويرى فيه الرئيس المستقبلي (للجزيرة العربية) كلها، كما أن (ابن سعود) يثق به. يسمى هذا الرجل (هاري ساينت جون بريدجر فيلبي)، وكان ينتسب إلى مجموعة الموظفين

الإداريين من (الهند). وكان مرسلاً مع بعثة الخبراء إلى منطقة (شط العرب). وشعر (فيلبي) بأنه في مكانه الصحيح، في قلب (الجزيرة العربية) في عالية (نجد)، وفي دائرة مستشاري الأمير (عبدالعزيز بن سعود). وهناك يكتشف مهمة حياته التي لم يتخل عنها بعد ذلك أبدا. لم يكن العربي ولا البريطاني يظن أن صداقة عميقة وتعاوناً خصباً سوف ينشأ عن مقابلتهما في تلك الفترة الأولى المجهولة. والآن عند كتابة هذه السيرة نعرف أن تلك المقابلة في بداية الحرب العالمية الأولى أسفرت عنها نتائج بعيدة المدى، لكل من هذين الرجلين، ولشعبيهما ولشعوب كثيرة أخرى. نعرف أيضاً أن (بريطانيا)، في أزمة وجودها كقوة عالمية، حصلت في (الجزيرة العربية) على مندوبين خاصين لقضيتها، أولهما (فيلبي) ذو الشعر الأحمر واللحية، بجانب (ابن سعود) في قلب (الجزيرة)، بينما ظهر المدافع الآخر عن الوحدة العربية بجانب الشريف الكبير (الحسين بن علي) من البيت الهاشمي في الغرب، بجانب (البحر الأحمر)، في (الحجاز)، في أراضي الإسلام المقدسة، وهو (ت. إي. لورنس) الذي ارتفع مجده بسرعة. ويظن هو أيضاً أنه اكتشف العربي الذي سوف يكون رئيس الشعب، ويقوده إلى الوحدة ، وإلى فترة جديدة من التاريخ. ولم يجد ضالته في شريف (مكة)، ذلك الحاكم العنيد المغرور قصير البصر، ولكنه يجدها في ابنه (فيصل) ذي القرائح الجذابة ، فيقود (لورنس) الثورة في الصحراء معه، ويرأسان مقدمة الجيش المنتصر. ويقود (لورنس) (فيصل) إلى حكم (سوريا)، فيطرده الفرنسيون، ولكنه يحصل على عرش المملكة الجديدة (العراق)، عوضاً عن العرش المفقود، في (سوريا)، بواسطة ذكاء (بريطانيا). ويشتهر (لورنس) بسبب رومانتيكية حروبه الصحراوية، ومهارته الشعرية الأدبية في وصف تلك الحروب. ويغزو كتابه «الأعمدة السبعة للحكمة» العالم خلال مدة قصيرة، ويكسب موقعاً بين المؤلفات الكلاسيكية في الأدب الإنجليزي، ولكن يختلف الإنجاز في الأدب العالمي عن تشكيل التاريخ العالمي. فلا ينجح (لورنس) المسمى « صانع الملوك العرب» في ذلك، ولا (فيصل) (ابن الشريف الحسين) حتى ولو أصبح ملك العراق. ويختفي (لورنس) عن مسرح التاريخ العربي، بينما يواصل الرجل الذي وثق فيه (فيلبي)، خطاه على طريق توحيد (جزيرة العرب) بنجاح مستمر.

قدر (فيلبي) الأمور بإدراك ودقة، بينما كان (لورنس) مخطئاً في تقديره. لم يدعم (لورنس) الرجل الصحيح، بينما خدم (فيلبي) رجلاً كبيراً، حقق هدفه حتى بدون مساعدة (فيلبي). إن (لورنس) خدم ودعم واستخدم رجلاً ماهراً وودوداً، ولم يكتب تاريخاً لصالح قضية (بريطانيا). وكان (لورنس) أكبر من الرجل الذي أراد أن يجعل منه ملكاً. كان شاعراً وخبيراً بالبدو الذين عمل على تشجيعهم إلى الوقوف في صف واحد، ولكن (لورنس) كان مريضاً نفسياً، وكان يهرب من نفسه ومن الناس المحيطين به. وكان يبحث عن الراحة في عدم الراحة، وبعد الانتهاء من مغامرته العربية الكبرى وخيبة أمله اللاحقة دمر حياته بين هدير المحركات والسرعة العالية.

لم يكن (فيلبي) عبقرياً ولا شاعراً، حتى لو كتب الشعر من حين إلى آخر. وهو موهوب وجاد وطموح مثل (لورنس) ، يعيش في خلاف مع التراث الاجتماعي والروحي الخاص بشعبه الإنجليزي، ويبحث عن حل لمشكلته في (الجزيرة العربية) لدى (ابن سعود). في أول الأمر كان خلافه ضد نفسه، وهذا ما فعله من خلال نقده ومعارضته ، ولذا فهو رجل تصعب المعاملة معه. وكانت معاملته للغربي صعبة جداً، حيث إن الغربي المثقف واجه دوماً هذا الاستياء من العالم ومن فيه. ولم يقلل (فيلبي) من استيائه حياءً أو خوفاً من الرأي العام، ولا بسبب الإيمان أو الحب الذي وجده في الصحراء. ولم يكن سعيداً، ولكنه صديق صعب، وإن كان مصراً على إخلاصه للشخص الذي اختاره أو للقضية التي اختارها ضد حركة التيار. انضم (فيلبي)، وهو في (إكسفورد)، إلى جماعة صغيرة من البريطانيين الشبان من ذوي الطبقة الاجتماعية العليا، والذين أصبحوا أعضاءً في الجانب اليساري لحزب العمال. واستطاع أن يعلن الحرب ضد العادات المتحكمة والقديمة الخاصة بتلك الدوائر البريطانية التي كان رؤساء الإمبراطورية البريطانية عادة منها، وعُرف وجماعته بأنهم أقوياء بناء على ذكائهم البارز ومزاياهم المادية الموروثة. واستطاع (فيلبي) في كبره مخالفة تعاليم الدين المسيحي المعاصر ، وتجرأ على أخذ خطوة عملية للتخلص من الموانع البريطانية المتعارف عليها، فاختار أن يصبح مسلماً ، وانهمك في خدمة (ابن سعود) إلى الحد الذي ضحى فيه بالمصلحة البريطانية ، كردة فعلٍ على فلسفات الغرب السياسية المتعطلة السائدة.

تسلم (ابن سعود) الحكم حينذاك، في فترة ذات هموم ومسؤوليات كبيرة، ولكنه ظل العربي الأقوى والأحكم من وجهة نظر الحكم البريطاني، عندما تُعالج قضايا عربية بالنسبة إلى الموقف العالمي. وأصبح (ابن سعود) هو المثال الذي يُعجب (فيلبي) به ويستثيره. وعلى الرغم من أن ثقة (ابن سعود) في (فيلبي) والصداقة بينهما لم تنمُ إلا بطيئاً، فلم يكن عجباً أن يترك (ابن سعود) تردده في اختياره للطرف الذي يجب أن يقف معه، ويقرر أخيراً أن يقف مع (بريطانيا) وحلفائها ، فيُبرم اتفاقاً مع الحكومة البريطانية عام ١٩١٥م في (العقير)، وهي بلدة صغيرة على شاطئ (الخليج) في منطقة (الأحساء). وينص الاتفاق على اعتراف (بريطانيا) باستقلال (نجد) ووحدته، وبدفع إعانة شهرية تبلغ (٥٠٠٠) جنيه إنجليزي، ويتعهد (ابن سعود) بدعم (بريطانيا) وحلفائها ، وعدم تقديم مساعدة إلى أعدائها[١].

ثم يحتاج (ابن سعود) إلى كل حذره لتقوية وضعه وسط خصومه المدعومين بالمال والسلاح المقدم من قبل الأتراك. وكان لا بدّ من معاقبة قبيلة (العجمان) التي تسببت في هزيمته من (آل رشيد). وكانت قبيلة (العجمان) قوية ومتماسكة، وكانوا مخلصين فيما بينهم ، وإن غدروا (بابن سعود)، واستمرت حملات (ابن سعود) وواجه الغدر من جديد، وهذه المرة من (مبارك) الذي أرسل ابنه (سالماً) بجماعة صغيرة من الجنود من (الكويت) لدعم (ابن سعود). وقُتل (سعد)، أخو (ابن سعود)، أثناء إحدى المعارك، وأصيب (ابن سعود) بجراحات وكسور، وخلال معركة أخرى وقع (ابن سعود) في كمين، وحمله حارسه من المعركة مجروحاً في فخذه. وهذه كانت إشارة (لسالم) ابن السلطان (مبارك)، للانقلاب إلى (العجمان). ودامت هذه المعركة طوال عام ١٩١٦م بجلدٍ شديد، ولكن لم يحتمل (العجمان) الإصرار الصارم (لابن سعود). إن قتال البدو شديد ولكنه قصير النفس، ولذلك يتفوق خصومهم عليهم. وكان لابد (لابن سعود) من الفوز أو أن يفقد مستقبله. وكان القتال شديداً

---

(١) يدل توقيع هذه الاتفاقية على أهمية الملك عبدالعزيز منذ تلك الفترة المبكرة وتقدير بريطانيا لقوته ومكانته والتعامل معه بشكل مستقل والاعتراف سيادته.

إلى حد غريب، حتى النساء من الطرفين شاركن فيه، وكن يتبعن حسب العادة القديمة رجالهن المحاربين لعلاج الجرحى وللعناية بهم. ويتقدم (ابن سعود) تدريجياً في المنطقة الخاصة بهم ، ويقاتل بلا هوادة. فهرب بقايا (العجمان) من منطقتهم (الأحساء)، ولجؤوا إلى (الكويت). دخل (ابن سعود) كثيراً من المعارك خلال عام ١٩١٧م، وثبت في نهاية ذلك العام وضعه كحاكم في وسط (الجزيرة العربية) ، وبدأ في توجيه انتباهه إلى الأحداث التي وقعت في شمال (الجزيرة العربية) ، والجبهات الأخرى ، خلال الحرب العالمية الأولى.

ما الذي حدث مع الحليف الثاني (لبريطانيا)، شريف (مكة)، الذي حصل على حكم (الحجاز) ، والذي وعدته (بريطانيا) وعوداً كثيرة مكافأة لثورته ضد الأتراك؟ يحاول (فيلبي) أن يعرض رأيه على البريطانيين الذين سوف يقررون حكام (الجزيرة العربية). ما الذي فعله (ابن سعود) بالمساعدات التي قدمتها (بريطانيا)؟ حافظ على وضعه في إمارته في (وسط الجزيرة) بمجهودات كبيرة ، وليس من الممكن استخدام هذا الرجل - فهو ذو آراء قويمة متحمسة للإسلام ، ترجع إلى زمن النبي (محمد)، هو وإخوانه الملتزمين - لتولي الحُكم في مناطق أخرى غير (نجد) ، وإذا تركت فسيتولى مراكز شعائر الحج ، والتي يجب أن يجد المسلمون الحرية فيها. لم تصدق (بريطانيا) رأي (فيلبي) ، ووضعت ثقتها في (لورنس).

لم يفت هذا التطور في السياسة البريطانية العليا، بالنسبة (للجزيرة العربية)، نظر (ابن سعود) الثاقب، فتجرأ الهاشميون عليه. وعليه قبول هذه اللهجة الآن، ولكنه يأمل أن يصفي حسابه معهم مستقبلاً. ويستطيع أن يعد نفسه من الآن للوقت المناسب. فأرسل دعاته إلى قبيلة (عتيبة) الساكنة في المنطقة بين (الحجاز) و (نجد)، لنشر الدين الصحيح. وتدخل القبيلة في الدعوة السلفية. وكان بين سكان (الخرمة)- وهي مدينة صغيرة - و(الشريف الحسين) خلاف مما جعلهم يطلبون حماية (ابن سعود). ويرسل (الشريف الحسين) جنوداً إلى المدينة ، ولكن سكانها يقاتلونهم ويردونهم. وكان (ابن سعود) متعجلاً في إرسال أتباعه خلف جنود (الشريف الحسين)، بعد ما ترك جنوده في (الخرمة) للسيطرة على هذه المدينة

المهمة الإستراتيجية، ومنعته (بريطانيا) من ذلك، ونصحه (فيلبي) بعدم القيام بعملية مفتوحة ضد (الحسين)، حيث إن (بريطانيا) تتعاطف معه. فلا بد من الصبر وفهم هذه الضرورة، ولكن أتباعه لا يصبرون، فتعاليمهم تقوم على الحماس المباشر البسيط والقويم الصارم المتمسك بأهداب الدين. فإذا أراد (ابن سعود) أن يظل رئيسهم الروحي الموثوق به، فمن الضروري أن يقودهم للقضاء على مظاهر البدع المنتشرة. ولقد اتضحت الأمور المحرجة والمؤلمة للإسلام وبشكل أوضح في المدن التي يجب أن تكون الأقدس والأنقى؟ هل يجب أن يتقدم أتباع (ابن سعود) لتنقية المدن المقدسة مثلما تقدم أجدادهم؟ واجه (ابن سعود) الاختيار ، وأصبحت مسألته الكبرى ضبط مقاتليه الأشداء، الذين ما عادوا يستمعون إلى المنطق. ورغبوا في القيام بواجبهم المقدس فقط. لذلك كان من الضروري لفت نظرهم إلى اتجاه آخر، التقى (ابن سعود) بأتباعه من الإخوان في اجتماع كبير ، وتركهم يتكلمون ويقدمون اعتراضاتهم أولاً، ثم أقنعهم بواسطة خطبته الهادئة وبلاغته، بإرجاء أمر (الشريف الحسين) والأراضي المقدسة ، والاهتمام بمهمة أقرب من ذلك. فلم تزل (حائل) تحت إمرة (آل رشيد)، وتهدد شمال (نجد). إذاً فالخيار الأول كان حرب (ابن رشيد).

فشلت الحملة باستثناء السلب الذي حصلوا عليه بالقرب من المدينة. وكانت (حائل) قد أُنذرت في حينها وأغلقت أبوابها، فكان السلب تعزية لغير الصابرين ، واستطاع (ابن سعود) أن يستريح فترة.

انتهت الحرب العالمية الأولى ، وتلاها ظهور الحمى الأسبانية التي انتشرت في (نجد) أيضاً. مات (تركي)، و(الجوهرة)، الزوجة المحبوبة (لابن سعود) في قصره (بالرياض). ويفترض أن هذا الفقد المزدوج كان أثقل فقدٍ شخصي في حياة (ابن سعود). ولابد أنه قدّر أن الله يختبره وسط همومه السياسية الكثيرة. لماذا؟ ليختبر قوة إيمانه.

لا أحد يعرف معركة الشك والتأمل التي عاشها (ابن سعود) خلال تلك الفترة، وأحاطه مستشاروه في مجال الحكومة وفي المجال الروحي، ولكنه كان وحيداً يواجه مسائل كبيرة، وعمل

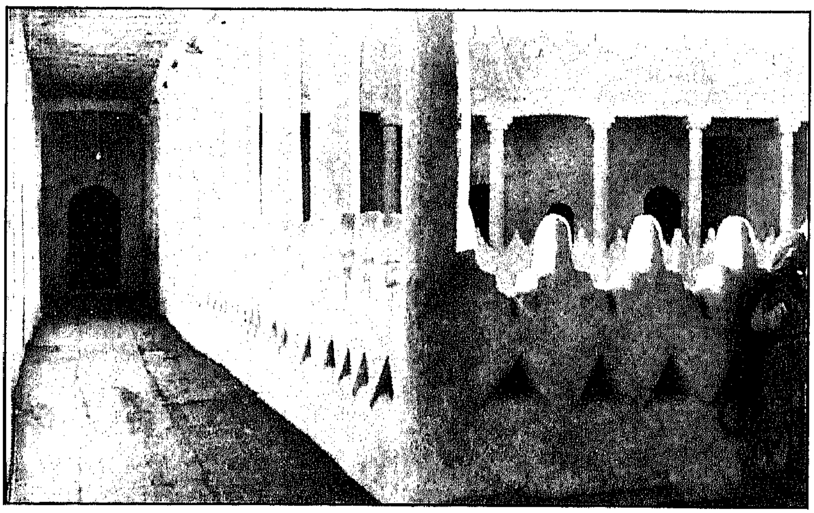
على التوفيق بين نصرة دين الله الصحيح بالجزيرة، وبين مستقبل شعبه المبارك. واعتبر أيضاً تنقية الأماكن المقدسة مهمة حياته. ولكن لم ير مؤيدوه ما رآه. أغلقت (بريطانيا) – القوة العالمية– الطريق عليه، وليس له من سبيل سوى الصبر والانتظار، ولكن أصعب من ذلك عليه إجبار إخوانه على الانتظار طائعين خلفه. وكان هذا ممكناً فقط إذا كان باستطاعته توجيه طاقتهم إلى توحيد البلاد. عليه المبادرة إذا لم يرد أن يفقد سيطرته عليهم. وما كان له أن يرتاح قبل الانتهاء من مهمته، مضافاً إليها وحدته وحزنه العميق على فقدان ابنه المحبوب وزوجه المفضلة.

ليست له راحة طالما عارضته (حائل)، مركز قبيلة (شمر) الكبيرة، مركز (آل رشيد). فتقدم إخوانه ومقاتلوه بسرعة ومفاجأة عبر الصحراء، وانقضوا على (شمر) فهزموهم. وأغلقت (حائل) أبوابها من جديد، ولكن تم الاستيلاء عليها بعد حصار قصير. وتولى (آل سعود) الحكم في (حائل) بعد سنوات عديدة. واستطاع سكان (الرياض) تحت رئاسة (عبدالرحمن)، والده الذي أصبح كبيراً في السن، رؤية الانتصار على (آل رشيد). وجاء بمن سلم من القتل من (آل رشيد) إلى (الرياض) أسرى، ولكنه أعطاهم بيوتاً وخدماً، وتزوج أرملة رئيس (آل رشيد) المقتول ، وأصبح أولادها أولاداً له. هذه المناسبة كانت ملائمة لرفعه إلى (سلطان نجد وملحقاتها) أثناء اجتماع رسمي تحت رئاسة والده الكبير. تم تشكيل الدولة السعودية في (وسط الجزيرة العربية). واستغرق ذلك وقتاً طويلاً وخاطر بحياته تكراراً، وبذل جهوداً جبارة. ولم يفقد قيمه الروحية بسبب المعارك الدنيوية والسياسية. وأصبح حاكم دولة عربية كبيرة، وكان في أول الأمر إماماً لبلدٍ ومقاتلاً في سبيل الله. حقق هدفه بدون دعم من (بريطانيا). وتعلم من هذه القوة العالمية درساً مهماً بالنسبة إلى قضايا (وسط الجزيرة العربية). منعته بريطانيا من تطوير أساليبه لاسترجاع دولة أجداده بصورة حرة، وحجزته عن دعوته كمنقي للدين بوصفه رئيساً للإخوان والحركة الوهابية الثانية. وجد في (بريطانيا) وسياستها القوية دعماً له في أول الأمر، ولكنها أصبحت حاجزاً بعد ذلك. قبل دعمها دون أن يؤثر ذلك في فكره واستقلاله . وقويت إرادته نتيجة للمعارضة البريطانية، وجدد إدراكه ،

واتسع صبره . فليست بريطانيا المنتصرة بل هو، عندما فهم ذلك أعطاه الواقع القوة للإخلاص لبعض البريطانيين الكبار طوال حياته ولصداقته لهم على المستوى الشخصي ، نظراً لما قدموه لشعبه.



١٥- القصر الجديد للملك الذي بني بالإسمنت المسلح (يكسر بساطة المربع المتميز بفن العمارة الطينية).



١٦- مبنى الضيافة الملكية (بالرياض).



١٧- الملك عبدالعزيز والأمير سعود بن عبدالعزيز، ولي العهد وابنه الأكبر.

٦- سلطنة نجد تصبح مملكة

بعد التغلب على قبيلة (شمر) كان الدور القادم على قبيلة (الرولة) التي تمتد منطقتها إلى الصحراء السورية. وقد سبق الدعاة الإخوان المقاتلين، وإن كان سكان تلك المنطقة قد أعجبوا بدعوة (ابن عبدالوهاب) ، ولكن لا مفر من استخدام السيف ضد معارضي الدعوة. كان من الصعب جداً على الحاكم السيطرة في استخدام السيف، حيث إن التابعين له اعتبروا استخدام السيف (الجهاد) مواصلة منطقية لنشر الدعوة بالاعتقاد، فضلاً على أنه أسلوب مناسب لهم. فبادرت جماعة من الإخوان في حملة تجاه الأردن بالقرب من العاصمة عمان، وكانت النتيجة سيئة لهم. فلم يأخذوا بالبريطانيين في حسبانهم، ولم يقدروا أن بريطانيا لن تسمح بتلك الحملة، ولذلك قدموا مساندتهم إلى الأمير (عبدالله). ووجّهت الآلة الحربية الحديثة (الطائرة) ضد الإخوان، وكذلك العربات المدرعة. وعند انسحاب الإخوان عبر الصحاري من الشمال لم يجدوا ملجأ، فقتلت أعداداً كبيرة منهم. وعاد (٨) رجال فقط من (١٥٠٠) رجل ممن خرجوا. وعاقب (ابن سعود) الرجال الثمانية الباقين. فقد أدرك (ابن سعود) أنه كان من الضروري الأخذ في الاعتبار القوة البريطانية داخل (الجزيرة العربية)، وأخذ الحذر منها.

دعا (السير بيرسي كوكس) لعقد مفاوضات في (العقير)، البلدة الواقعة على (شاطئ الخليج)، حيث تقابل الرجلان من قبل عام ١٩١٥م ، ووقعت هذه المقابلة خلال خريف عام ١٩٢٢م. وكم من السنوات مرت خلال هاتين المقابلتين! بدأت كلمات (فيلبي) تؤثر في البريطانيين الذين حددوا سياستهم في (الجزيرة العربية)، بل أكثر من ذلك أثرت فيهم صعوبة المعاملة مع (الشريف الحسين)، وعجزه بوصفه حاكماً. ولم يزل المكتب العربي البريطاني في القاهرة لا يعترف بخطئه، ويصغي إلى (لورنس) ويعمل برأيه، ولكن تحول اهتمامهم إلى (ابن سعود) تدريجياً. ويستطيع (ابن سعود) أن يتكلم مع (السير بيرسي كوكس)، البريطاني الهادئ الطبع، الذي عامله باحترام مكنون. وكان من السهل على

(ابن سعود) أن يشرح صعوبة تولي الحكم على البدو ، حتى ولو كانت الناحية الروحية المهمة في تصرفاته كتاباً مغلقاً (للسير بيرسي كوكس) الإنجليزي المسيحي. وكان (فيلبي) وحده يفهم تلك الحقيقة فقط. فإذا تغلغل الإيمان بفهم وإدراك، يصبح الإيمان طاقة دافعة عظيمة في حياة المؤمن البسيط، وقرب (فيلبي) من (ابن سعود) بسرعة وبشكل جوهري أكثر. فلو كان (فيلبي) مجرد مؤمن، لما كان من الضروري أن يصبح مسلماً، فقد اكتسب الثقة والاحترام الكاملين من (ابن سعود).

تمت مناقشة خلافات الحدود بين القبائل العربية السعودية والعراقية مع (السير بيرسي كوكس). ولم تكن الحدود المتمثلة في خطوط جغرافية معلومة في (الجزيرة العربية). ولم يكن ذلك المفهوم مقبولاً لدى البدو بل كان مستحيلاً. فلا بدّ أن ترتحل القبائل التي تعيش على الرعي في منطقة محدودة طلباً للكلأ والعشب، خلف الأمطار التي تخضّر الصحراء تارة هنا وأخرى هناك. وُجد اتفاق لكنه غير كامل، عن طريق تحديد مناطق حدودية حيادية تحفظ لكل من قبائل (نجد) و(العراق) حقوق المرعى، والانتفاع الحر من مياه الآبار.

كان اتفاقاً غير مرضٍ طالما بقي التهديد من قبل الحكام الهاشميين، وكان حفظ السلام معتمداً على (بريطانيا).

اتضح هذا التهديد بعد وقت قليل من الاتفاق ، وذلك عندما عارض (الشريف الحسين) الإرادة البريطانية ، واحتل فجأة (الخرمة وتربة) على حدود (نجد). ولكنه لم ينعم بحكمهما طويلاً ، حيث إن سكان المدينتين طردوا جنوده خارج الأسوار. ولكن الوضع لم يستقر. ولم يستطع (ابن سعود) أن يقوم بواجبه تجاه هذا الأمر ، لأنه كان مريضاً، ويعدّ ذلك أول مرض منذ طفولته، التهبت عينه اليسرى نتيجة علاج خاطئ من قبل الأطباء المحليين غير الخبراء، ثم فقد ضوء هذه العين نتيجة عملية جراحية فيها من قبل طبيب قدم من (مصر)، وتضرر وجهه الرائع المنظر. وبينما كان مصاباً بالمرض عدة شهور تطورت الظروف لصالحه ، نتيجة لتصرف (الشريف الحسين) الذي أفسد علاقته مع (بريطانيا)

أكثر فأكثر، وحقد شعبه عليه بسبب جوره وابتزازه لهم. كما عانى الحجاج والزائرون للمدن المقدسة من حكمه السيئ أيضاً. وأصبحت الحكومات التي يتبع الحجاج لها تجاهره العداء. وكان من الضروري أيضاً تدخل الحكومة الهولندية دائماً عن طريق مبعوثها في (جدة) لتمنع الاعتداء على الآلاف من الحجاج القادمين من جزر الهند الشرقية ، بل ازداد عدم الأمان في البلد ، ولم يستمع (الشريف الحسين) إلى أي نصيحة أو تحذير ، ولم يكن يهمه سوى فائدته الشخصية، وسيطرته فقط. وبلغ الغرور به حداً جعله يفكر في تولي مقام الخلافة، الذي كان شاغراً ، نتيجة لخلع (كمال باشا)، آخر تركي حامل لهذا اللقب. عرف (الشريف الحسين) أنه غير محبوب من قبل شعبه ، ولن يسانده شعبه في تولي الخلافة، لذلك سافر إلى ابنه (عبدالله)، أمير (الأردن)، بعد دعاية صحفية عبقرية حولته إلى أمير المؤمنين، خليفة (رسول الله). وبدا أنه يحقق - أكثر من كل الملوك في ذلك الحين - معظم الشروط الخاصة بمقام الخلافة. وانتسب إلى (الرسول) مباشرة، وكان حاكماً على البقاع المقدسة. ولكن كانت سلبياته أكثر من إيجابياته! وتجرأ على الظهور في نظر العالم الإسلامي الذي كان يراقب الموقف بانتباه، واتضح فيما بعد كم كان له من أعداء ، تحداهم ، ولم يكن من الضروري الانتظار الطويل لردود فعلهم. حتى (بريطانيا) التي كانت مترددة طويلاً، أصبحت متأكدة من أن (الشريف الحسين) لن يحقق وحدة داخل المنطقة العربية ولا سلاماً. بالإضافة إلى ذلك كانت (بريطانيا) تدرك أن سياستها لن تنجح في المنطقة ما لم تنفك من (الحسين). وسوف يُستبدل اتجاه (فيلبي) باتجاه (لورنس)، أو سوف يكون العربي وليس البريطاني هو الذي أخذ زمام القيادة إليه، وحدد الاتجاه الجديد.

تطورت الأحداث سريعاً، وصدّق (الشريف الحسين) دوره الجديد، وأعمى بصره شبه النجاح الذي حققه، كما كان مضللاً من المنافقين من حوله. ملأت (القبلة) - الجريدة المكية الرسمية حينذاك - إعلانات الشريف والبرقيات العاجلة لـ«خليفة آل محمد». وكانت تلك البرقيات العاجلة من مصادر غامضة، ولم تؤثر في المطلعين. وبدت لمشاهدين مهتمين من الغرب تمثيلية تاريخية من الزمن الذهبي للخلافة، ولكن بستائر باهتة ومجموعة من الممثلين

الهواة المبتدئين. واتصل العرض في (مكة) بعد عودة (الشريف) إليها، ولكن بدأت الحقيقة الثابتة تعود إليها. لم يأت المقام الجديد بأي فائدة، ولكنه أفرز المزيد من الحسد والعداوة من قبل الأعداء والمنافسين.

وترتب على ذلك اضطراب الزعامة في (نجد)، فنفد صبرهم بسبب أزمة ضعف الدين والتدني الأخلاقي المتزايد في المدن المقدسة. فلا بد من تهذيب (مكة) و(المدينة) تحت شعار الدعوة السلفية. ولم يتأخر إمامهم حتى الآن، و(الشريف الحسين) في (مكة) مشغول بطموحه إلى الشرف والتوق إلى القوة، يشتم إمامهم ويهينه أمام العالم كله؟.

يدرك (ابن سعود) أنه يجب أن يجد مخرجاً للتوتر المتزايد. فيعقد اجتماعاً في عاصمته، حيث يستطيع العلماء ورؤساء القبائل وأهل الرأي أن يعبروا عن شعورهم المكبوت. ويرأس (عبدالرحمن) الشيخ الوقور الاجتماع، وهو ما يزال رجلاً ذا طاقة كبيرة ، وعقل صاف. ويجلس حوله العلماء وعلى مقربة منهم (ابن سعود)، لا يتكلم كثيراً ، ولكنه يلحّ في حسن الانتباه والممارسة الحذرة. ويقرر الاجتماع إرسال خطاب إلى المسلمين في كل البلدان الإسلامية، وتذكر في هذا الخطاب كل آثام (الحسين) الذي يريد أن يبلغ القمة بتوليه الخلافة. وفي النهاية يقول الخطاب : إن أهل (نجد) سوف يمارسون باسم كل المسلمين إعادة الحق إلى نصابه، ويدخلون (الحجاز) لخلع (الحسين) بعد فترة الحج. ولم يوقع (ابن سعود) الخطاب ، ولكن وقعه ابنه الثاني (فيصل). يعرف (ابن سعود) أن سوء الفهم والتحيز قد يضر بالثقة فيه ، وفي أتباعه خارج (الجزيرة). ولم يكن يتوقع كثيراً من هذه العملية، وفضل عدم ربط اسمه بها. وظهر أن رؤيته كانت صحيحة ، فلم يستلم سوى ردود قليلة مؤيدة له على حذر، باستثناء بلد واحد ، حيث أعطى السبعون مليون مسلم من (الهند) رداً واضحاً. فأعلنوا بأنهم خلف العملية ، ووعدوا بدعمها. بلا شك كانت ذكريات الحجاج من (الهند) في بلد الإسلام المقدس سيئة جداً، إذ اختاروا الحكم السلفي في (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة) على استمرار حكم (الحسين) المتصف بالجور واستغلال الحجاج. وإذا كان لمسلمي (الهند) الشجاعة لإعطاء موافقتهم (لابن سعود)، فأصبح من السهل على

السياسيين البريطانيين سحب أيديهم التي تمنع (ابن سعود) حتى الآن، وكان هذا الواقع كافياً (لابن سعود). فاستطاع من خلاله أن ينفذ ما تبقى في نفسه، ويتم تخطيط الحملة ، وتسير الخطوات الأولى، فيأمر بالقيام بغزوات باتجاه (العراق) و(الأردن) و(الحجاز) في وقت واحد ، حتى لا يعرف العدو من أين ستأتي الحملة الرئيسة. ومرة أخرى لا يسيطر (ابن سعود) على فرق طلائع استطلاعه، حيث بادر سكان (الخرمة وتربة)، الذين عانوا كثيراً من (الشريف الحسين) وابنه الأكبر (علي)، الذي كان قائداً للجيش، بالتقدم نحو (الطائف)، مدينة الحدائق في الجبال ، حيث يصطاف أغنياء (مكة). وينضم البدو إليهم لأنهم يشمون فرصة للسلب والنهب. ويسمعون خبراً مفرحاً هو أن الأمير (علياً) في المدينة. فهاجموا وفاجأوا القوات المحتلة، وهرب (علي). وتبع ذلك كثير من القتل والنهب. والأخبار المبالغ فيها الخاصة بالأحداث المفزّعة أرعبت سكان (مكة) ، فهرب كثيرون إلى (جدة). وغضب (الشريف الحسين)، ولكنه مضطر لأن يعترف بأنه فقد الجولة ، نظراً للموقف الرهيب من سكان (مكة)، وخاصة عندما يطلب وفد من (مكة) أن يتخلى الشريف عن المنصب لصالح ابنه (علي). ويصر الأقرباء منه على الاستجابة لذلك الطلب. وتنتظر السيارات القليلة التي سُمح بدخولها (الحجاز) أمام قصره . ويتم تحميلها بممتلكاته الثمينة الدالة على جوره وقساوته. ويترك المدينة المقدسة ويتبعه الحقد والشتيمة. وترسو ثلاث سفن بخارية قديمة، يملكها شخصياً في ميناء (جدة). ويصعد على متن «الرحمتين» بعد تحميل الذهب البريطاني المعبأ في صناديق البترول، والنقود المغتصبة من الحجاج ، وعوائد الرسوم التي دفعها التجار وشيوخ الحجاج على الباخرة. ويُرفع العلم ذو الألوان الأسود والأحمر والأبيض والأخضر الدال على البيت الهاشمي، وترحل الباخرة شمالاً إلى (العقبة)، التي توجد على (شاطئ الخليج) بالاسم نفسه، وتشكل الحدود بين (الحجاز) وشبه (جزيرة سيناء) التابعة (لمصر)، خارج نطاق حكم (عبدالعزيز) ويراقبها البريطانيون مراقبة حادة نظراً لموقعها الإستراتيجي. ويحميه الإنجليز في العقبة، رغم أنه يحتقرهم لأنهم لم يساعدوه في محنته، مع أنهم أتوا به للملك.

وينتهي عام ١٩٢٤م، ولم يستغرق حكم (الشريف الكبير) في (مكة) عشر سنوات، وخلافته بضعة أشهر فقط. ولم يكن محتاجاً لفترة أطول لتوضح عدم قدرته على الحكم، ولإظهار رغبته في السيطرة ، وتوقه بلا حدود إلى الرفعة. يغادر وهو يحتقر البريطانيين غير المخلصين، حيث يعتبر وعودهم، غير الموفى بها، هي السبب في كل ذلك. ينظر الحجازيون، البدو والحضر على السواء، إلى مغادرته بمرارة. فهو رجل ينتسب إلى أحسن الأصول، ولكنه أسوأ الناس بالنسبة إليهم، أسوأ من التركي الذي حل محله. ويعرف المسلمون في الخارج أنه أساء إدارة المدن المقدسة وكل الحجاج كانوا من ضحاياه. ويعرفون أنه، بعد (كمال باشا)، التركي ، كان الحاكم الثاني لضرب نظام الخلافة ضربة قوية. يأخذ ابنه الأكبر مكانه، ويتحصن في (جدة) حيث يحمي البحر ظهره، كما يعطيه حضور قناصل البلدان الغربية الأمل في أن يتمكن من إيقاف حملة الإخوان ومنع القتل والنهب. يستخف سكان (جدة) بالملك (علي)، بل لا يثقون في قدرته على الرئاسة. وتقف المدن التالية إلى جانبه: (المدينة) و(ينبع) و(الوجه)، وتقفل أبوابها أمام تهديد جيش الملك (عبدالعزيز). ويبقى البدو المقيمون في ضواحي تلك المدن مخلصين للهاشمي. وهكذا يبقى (الحجاز) مترقباً ما سوف يحدث.

تتعجب (الرياض) من خبر فتح (الطائف) ونهبها من قبل فرقة استطلاع وجماعة من البدو انضمت إليها. يرسل (ابن سعود) أمراً إلى قادته لمنع حدوث أي قتل ونهب إضافي. ويحملهم المسؤولية الكاملة عن ذلك، ويتقدم بجيشه نحو (الحجاز) سريعاً.

يتقدم أمير (الخرمة)، قائد فرقة الاستطلاع عند (الطائف)، في غضون ذلك إلى (مكة)، ويرسل أربعة من الإخوان غير المسلحين إلى (المدينة). وتبدو (مكة) مدينة خالية: الدكاكين مغلقة، والسكان متحصنين في بيوتهم. ويعلن الرجال الأربعة باسم القائد الأمان لكل السكان تحت حماية الله ثم (ابن سعود). ويدخل (ابن لؤي) (مكة) في اليوم التالي ومعه ٢٠٠٠ رجل، مرتدين الإحرام، ويسيطر على القصور والمباني العامة. ويحدث كل شيء بلا نهب أو سلب، ولا يُدمر إلا القباب التي على القبور والصور والزخارف التي على المساجد، وصور الأشخاص التي في المباني العامة ، وآلات الموسيقى. وبذلك يخف الانطباع السيئ الذي تركته أحداث الطائف.

يُعسكر (ابن سعود) مع جيشه خارج (مكة) لمدة ١٥ يوماً بعد أن دخلها (ابن لؤي). وسوف يدخل (ابن سعود) (مكة المكرمة) حاجاً مثل كل المسلمين. ويخلع علامات الشرف القليلة، ويركب إلى المدينة ويلبس الإحرام. مثل كل الحجاج يدعو لبيك اللهم، لبيك! يدخل المسجد الحرام، المسجد المقدس، ويقترب من بيت الله (الكعبة)، ويقوم بالطواف سبع مرات ويكمل العمرة. ويتبع رؤساء جيشه والعلماء، كلهم أمامه. ويهذب (ابن سعود) جنوده بهذا المثال، الجنود الذين توقعوا أكثر من ذلك، بعد الوصول إلى هدفهم الرئيس بعد الانتظار الطويل (مكة المكرمة) في سيطرة الملك عبدالعزيز ورجاله، رجال التوحيد. وسوف تصبح مدينة الإسلام المقدسة، نقية ومقدسة من جديد. ولا تزال (المدينة المنورة) في أيدي الأتراك، كما أنهم محصنون في ثلاث مدن على شاطئ البحر الأحمر. وإذا سمح لهم الحاكم فسوف يفتحونها ويخضعونها. ولا يعرفون أن ذلك قد يستغرق أكثر من سنة كاملة حتى يتحقق ذلك الهدف. ولا يخاطر (ابن سعود) بملاقاة القوات الأجنبية، لذلك لا يسمح بحملة على (جدة) بل يكتفي بحصارها.

يرى الملك (عليّ) استحالة التغلب على خصمه. وعندما نفدت كل الوسائل وافق على التنازل عن العرش. فغادر (عليّ) (جدة) على متن سفينة بحرية بريطانية إلى أخيه الملك (فيصل) في (بغداد)، وبذلك استسلمت (جدة) شهر ديسمبر ١٩٢٥م. واستسلمت (المدينة المنورة)، وأصبح (الحجاز) كله تحت سيطرة (ابن سعود)، وعند عودته إلى (مكة) جاءه أعيان (الحجاز)، وأبلغوه أن شعب (الحجاز) اختاره ملكاً عليه. وأيد كل الأعيان في (مكة) و(المدينة) و(جدة) وبعض المدن المهمة الأخرى هذا الاختيار بشكل رسمي يوم ٨ يناير ١٩٢٦م. وعين الملك ابنه الثاني، (فيصل)، نائباً له على (الحجاز)، وممثلاً له في الأراضي المقدسة. وأُقيم استقبال عام، وسُمح للجنود في (قصر أجياد) بإطلاق ١٠١ طلقة على شرف الملك الجديد، (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها). وبقي (سلطان نجد) مؤقتاً، حيث كان أتباعه لا يبالغون في تقديرهم لهذه الظاهرة.

وجد الملك (ابن سعود) نفسه أمام واجب جديد. فأظهر حنكته بوصفه قائداً إستراتيجياً وزعيماً بدوياً اقتضت مهام العمل في أراضي الإسلام المقدسة جهداً كبيراً. فكان عليه التعامل مع العالم الإسلامي الدولي بمشكلاته وخلافاته السياسية والروحية.

تعامل في (جدة) مع مندوبي الدول الغربية والشرقية التي اهتمت بظروف (الحجاز)، نظراً لقيام مواطنيها المسلمين بالحج. وتابعت هذه الدول تجربة الدولة السعودية في المدن المقدسة بانتباه كبير. انتهت التجربة الأولى تحت ضربات الحملة العسكرية المصرية بقيادة (إبراهيم باشا) عام ١٨١٢م ، وكان السؤال المهم: هل ستستقر السيطرة السعودية على البلاد المقدسة؟ ويتوقف كثير من ذلك على زعيم الدولة السعودية. فمن كان ذلك البدوي من (نجد) الذي عرفناه خلفاً (لمحمد بن سعود)، الرجل الذي سمعنا كثيراً عنه، وكنت متوتراً في مقابلتنا الأولى له، والتي سوف تتبعها مقابلات كثيرة متوزعة على فترة تستمر ١٨ عاماً.

زار الملك (جدة) للمرة الثانية أول مارس ١٩٢٦م. وحضرت باخرة باسم الحكومة البريطانية تشريفاً لتوليه الملك على الجزء الجديد من دولته. وأتيحت للمندوبين الأجانب، الذين لم يحضروا دخول الملك الرسمي (لمكة)، الفرصة لمقابلته. وذهبت بوصفي مبعوثاً هولندياً قادماً مع زميلي السابق إلى المنزل الجميل لصديقنا (محمد نصيف)، حيث أقام (ابن سعود) بسبب عدم توفر قصر له. رأينا جلالته في المجلس الرئيس ، حيث أدخلنا سكرتيره للشؤون الخارجية، العراقي (عبدالله الدملوجي). وكان الملك يتحدث مع (حافظ وهبة)، مستشاره المصري، الذي أصبح ممثله في (لندن) منذ عدة سنوات. تم تقديمنا إلى الملك (ابن سعود) مع تزكية ومجاملة بسبب معرفة المندوبين الهولنديين باللغة العربية.

قام من مقعده بجوار حائط المجلس ونظر إلينا بعينه السليمة مبتسماً، ودعانا إلى الجلوس، كل منا على جانب له ، وأشار إلى مستشاريه أن اخرجوا من الصالة. وهناك بقينا وحدنا معه في المجلس الواسع والمرتفع . كان الملك يجلس مرتفعاً عنا وينظر إلينا بنظراته الجميلة، وبصوته الدافئ وبحركة فمه إذا تكلم برفق طبعي تقريباً! ولو كان تعلمي للعربية أفضل لاستطعت التمتع بجمله الجميلة الواضحة ، وبحركات يديه الطويلتين الأرستقراطيتين أكثر. قال (ابن سعود) : إنه خصص مدة كافية للمندوبين الهولنديين لإيضاح بعض الأمور المهمة بحيث نتمكن من تبليغ حكومتنا بها.

«كذلك حكومتكم وشعبكم يعتقدون بأنني رجل قاس وخشن. إن حكايات تصرفاتي قد سبقتني بلا شك. زودكم أعدائي بمثل تلك الأخبار. تستحق ملكتكم أن تعرف الحقيقة عني. فعلاً ضربت بشدة وعاقبت بقسوة. تغلبت على خصم سيئ بعون الله. سوف يعرف هذا البلد الأمان والاستقرار والعدل. عاقبت اللصوص والمذنبين بشدة. وليست هذه العقوبات قاسية ولكنها رحيمة. إن شاء الله ليس من الضروري أن أعاقب لفترة طويلة، لا هنا ولا في مكان آخر في مملكتي المديدة. قد سمع الناس في كل مكان عن عقوبتي (لبني مالك)، فهو عقاب للقبيلة كلها... للسرقة المرتكبة في منطقتها. تعاقبون خفيفاً وتحبسون المذنبين في مبانٍ جميلة بعناية طيبة. هذا التصرف قاس، حيث إنكم مضطرون إلى مواصلة العقاب سنة بعد سنة. أعرف البدو وأعرف معالجتهم. هل هذا البلد ليس آمناً، هل تسرق فيها حتى الحاجة البسيطة؟ والله الناس هنا يعرفونني منذ مدة قصيرة فقط، ولكن أؤكد لكم أنه لن ترتكب سرقة ولا جريمة هنا في خلال الوقت القريب.

حدثوكم عن تعصب الوهابيين، يهمني أن تعرفوا الحقيقة عن إيماني وإيمان إخواني. أشهد بأن الله يستخدمني أداة في يده. ما دمت صالحاً للاستخدام سوف يعطيني النجاح، ولا توجد قوة لتفادي النجاح. إذا أصبحت غير صالح للاستخدام فيرميني ونقول الحمدلله».

يقطع جمله الطويلة وأفكاره الجدية بـ« نعم » أو «أنتم معي»؟ يصبح مضمون كلامه جدياً أكثر فأكثر، ولكنه يبتسم عندما ينطق «نعم» برفق عفيف. يتكون الجزء الأخير لمحادثته الطويلة من قطع تبدأ بـ «أشهد أن» الخاصة به. كان يريد أن يوضح لنا أن كل ما يفعله يرجع إلى إيمانه. فليس هو المتعصب الذي تعرفنا عليه من الحكايات التي جاءت إلينا من (نجد)، ولكنه (ابن سعود) الذي ينظر خلف حدود بلده الصحراوية والذي اتصل بالإسلام العالمي، ويدرك أنه سوف يستطيع أن يحكم أراضي الإسلام المقدسة. ويظن أنه قادر على ذلك، ويحتاج إلى التعبير عن أفكاره تجاه نفسه وتجاه الآخرين. كنا معجبين بجديته وحماسه، حتى ولو كان من الصعب علينا متابعة كلماته، وحيث إننا نملك إيماننا الذي يقرب من إيمانه، وفي الوقت نفسه يختلف عنه كثيراً، شعرنا بالتعاطف خلال هذه المقابلة مع إنسان يتكلم عن إيمانه كأغنى ثروة له، ويقدمه إلى الآخرين.

كانت هذه المقابلة أكثر من استقبال رسمي، وسمح لنا بالدخول في غرفة رجل كبير ، لا يخاف من رأي الأجنبي الناقد الذي يفكر في الأمور بصورة مختلفة تماماً. وتوقفنا بعد هذه المقابلة متحيرين أمام منزل (محمد نصيف)، ونظر بعضنا إلى بعض معترفين بأننا: قابلنا رجلاً كبيراً ، واستفدنا من المقابلة ، ونستطيع أن نتوقع كثيراً من هذا الملك البدوي لصالح الأراضي الإسلامية المقدسة ، التي كانت تحت سيطرة سيئة لعدة قرون ، وكذلك لصالح الحجاج الذين عانوا من تلك السيطرة السيئة ، ومن المحتمل لعالم الإسلام كله الذي يأمل في منقذ حينئذ ، وبالتأكيد لم يتوقعه من أخلاف السعوديين القادمين من (نجد).

٧- في الأراضي المقدسة منتدى العالم الإسلامي

انضمت الأراضي المقدسة إلى مملكته ، ومن البداية فهم (ابن سعود) أنه سوف يواجه مشكلات جديدة. وأنه لن يستطيع أن يحكم هذه المنطقة من (جزيرة العرب)، إلا إذا وثق به العالم الإسلامي، وأنّ عليه أن يكسب هذه الثقة. على الرغم من أن هناك رأياً عاماً مسبقاً ، وهو أن الضم الأول (للحجاز) قبل أكثر من قرن، ترك انطباعاً سيئاً عن الدولة السعودية، حيث تمت تنقية المدينتين المقدستين من البدع بعنفٍ[١] ، فثارت كل الدول الإسلامية عليهم، واضطرت الحكومة التركية إلى اتخاذ إجراءات، كلفت بها الوالي المصري الذي بادر إلى طرد السعوديين بحملتين عسكريتين إلى باطن الجزيرة، قلب الصحراء .

كان العالم الإسلامي يراقب اقتراب الحملة الثانية على (الحجاز)، مهموماً وخائفاً. ولم يكن تصرفهم في (مكة) و(المدينة) هذه المرة شديد القسوة، بل توقع العالم أسوأ من ذلك. لم يتوقع العالم تصرفاً أحسن من هؤلاء الذين يعتبرون الرسول بشراً عادياً ويمنعون تعظيمه أو تعظيم قبره[٢]. وكان ممثلو الدول الغربية في (جدة) قد أسهموا في منع حدوث كارثة من قبل، ولكن هل هم مستعدون للشيء نفسه مرة أخرى؟ كلا! كان الوقت حينذاك وقت الحرب، أما الآن فالوقت سلام، ويسيطر السعوديون وحدهم على الموقف.

أدرك (ابن سعود) أنه لا يستطيع أن يحكم الأراضي المقدسة طبقاً لنظامه البسيط. كيف يقبل به العالم الإسلامي خادماً للحرمين الشريفين، وفي الوقت نفسه لا يفقد شعبه وخاصة إخوانه الثقة به؟

---

(١) كان لا بد من إزالة المخالفات الشرعية المنتشرة في ذلك الوقت في الأماكن المقدسة. وينبغي ملاحظة أن روايات ومزاعم العنف التي تحدثت عن إزالة ذلك المنكر كان مصدرها خصوم الدولة السعودية، حيث هدفوا إلى تشويه صورة الدولة السعودية، وحقيقة الدعوة التي تستند إليها.

(٢) في مذهب أهل السنة والجماعة يعد الرسول(محمد) ﷺ أعظم الرسل، وأفضل البشر، ويكون تقديره واحترامه بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، واتباع سننه، أما التمسح بقبره، وغير ذلك مما يفعله البعض من البدع والمنكرات، فهو مخالف للعقيدة الصحيحة.

التقى بأفضل ممثلي العالم الإسلامي عن طريق الحج، كان عليه تقديم الدليل لهم على أن البلد المقدس بلد آمن ومستقر، حيث يعامل الحجاج كضيوف كرام، مُرَحباً بهم، ولن يصبحوا ضحايا سلب ونهب مثلما كانوا يعانون خلال حكم الشريف (الحسين). (فابن سعود) يضمن لهم الأمان والعدالة. ولم يكن مرتاحاً إلى حد ما للقاء بعض الإخوان والحجاج القادمين من الخارج، حيث كانوا يرون أن بعض الحجاج غير مطبقين لشرائع الله. واستعد أولئك الإخوان -الذين كانوا ممنوعين من الحج خلال الحكم الهاشمي- لزيارة (مكة) و(المدينة).

وبذل (ابن سعود) كل مجهوداته لتفادي هذه الخلافات، ولذلك أبعد جنوده المتحمسين عن (مكة والمدينة)، وأمر ببقائهم بعيداً عن أماكن المشاعر. وركب مع أبنائه إلى (عرفات ومزدلفة ومنى). وأصدر أوامر صارمة بمعاملة الحجاج كضيوف، وبالتسامح تجاه أخطائهم. ومن ثم طلب من الحجاج الامتناع عن عادة التدخين، أو على الأقل عدم التدخين علناً لتفادي غضب الدعاة. ومُنعت طقوس زيارة القبور المقدسة والصلاة عليها. ولم تكن ثمة فرصة كبيرة لذلك، حيث إن معظم قباب القبور كانت مدمرة في البلد كله، باستثناء القبة المغطاة بالنحاس على قبر الرسول في (المدينة). وكان أغلب الحجاج قد تعودوا على زيارة هذا القبر والصلاة في مسجده، وتنفس الهواء المبارك حوله. ولكن الدعاة منعوهم من الركوع أمام القبر، وسُمح للحجاج بالزيارة، وتأدية الصلاة على الطريقة التي أوضحتها جريدة أم القرى فقط[1]. وقد بين العلماء هذه الطريقة، وصدر بموجبها قرار ملكي، وأصبحت زيارة قبر (الرسول) في (المدينة) خيبة أمل لبعض الحجاج. كما حدث الشيء نفسه عند زيارة قبر «أمنا حواء» الموجود خارج حائط مدينة (جدة)، والذي يؤمه الحجاج من (إندونيسيا) خاصة (من المفترض أن معنى مدينة «جدة» مستمد من وجود قبر حواء). وعند ضم (جدة) تم إزالة المبنى ذي القبة الذي كان موقعه على مكان يعتبر السرة الطويلة جداً لأم جميع البشر. وعندما زار الحجاج هذا المكان على الرغم من القيود، أمرت الحكومة بنقل كل حجر من

(١) ما أوضحته جريدة أم القرى هو رأي السلف الصالح في أمور العبادة، وما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم فيما يتعلق بأمور الزيارة والصلاة في المسجد النبوي الشريف.

القبر الذي بلغ طوله ١٠٠ متر ونشرها تماما[١]. سببت هذه الممارسات مشكلات صغيرة بين الحجاج والحكومة ، وتمكن كل المعنيين أن يتعودوا عليها. ولكنها كانت خيبات أمل كبيرة، وعميقة الجذور للمؤمنين البسطاء. لذا دام النفور الناتج عن تطبيق التعاليم الإسلامية من الدولة السعودية الأولى وقتاً أطول مما احتاجه (ابن سعود) لتنقية الخلاف. وأدى هذا الوضع إلى خلاف بين المصريين والسعوديين. كانت هناك عادة منذ أوائل الإسلام أن تُرسل (مصر)، وبعض البلدان الأخرى، محملاً إلى الحج، وكان المحمل فيه الكسوة السنوية، يحملها جمل وتتبعه قافلة من الجمال الناقلة بصحبة عساكر مصريين.

نقلت الهدية السنوية من (مصر) في موكب بهي: الكسوة الجديدة (الغطاء الأسود المزين بتطريز ذهبي ليعلق حول الكعبة، بيت الله، في المسجد الحرام)، وصناديق كثيرة مليئة بالمال، وأكياس من الدقيق لفقراء المدينتين المقدستين. ولم تكن الفرقة العسكرية للمحمل ضرورية لضمان الأمان، ولكنها كانت مواصلة لعادة جارية. شاهد الإخوان الموكب مرتابين ، ورأوا فيه ممارسات غير شرعية. وفي يوم خلال أيام الحج اجتمع أكثر من ٢٠٠.٠٠٠ حاج على صعيد (منى)، ونفخت الفرقة العسكرية المصرية في أبواقها لجمع المتأخرين ، فاعتبر الإخوان النفخ مخالفاً للشرع، لأن الموسيقى حرام في رأي أئمتهم، فاختلفوا مع أصحاب المحمل . ولم يقبل قائد الفرقة العسكرية المصرية بذلك ، وأمر جنوده بإطلاق الرصاص في الهواء، ولكن ذلك لم يمنع الإخوان من تصرفاتهم تجاه الفرقة، فأمر القائد المصري بإطلاق النار على الجماهير بالبنادق وبالرشاشات. أوشك الوضع أن ينقلب إلى الفوضى الكاملة. سقط الموتى والجرحى. ووثب الأمير (فيصل)، الابن الثاني (لابن سعود)، وهو نائب الملك في (الحجاز) لفك النزاع بين المصريين والإخوان. وبعد الحضور السريع (لابن سعود) نفسه، ينجح الأب والابن في إرجاع الإخوان ، وتفادي مذبحة كبيرة. كان هذا الحادث سبباً للتباعد السياسي بين الحكومة المصرية و (ابن سعود)، تباعداً استمر عشر سنوات. وفي غضون هذه الفترة توقف

(١) لجأت الدولة السعودية إلى هذا لمنع الممارسات غير الشرعية التي كان يقوم بها بعض الحجاج والزوار عن جهل بتعاليم الدين. وكانت تلك الممارسات غير مقبولة شرعاً وتحدث عنها العلماء كثيراً.

المحمل عن الحضور، واستغنت المدن المقدسة عن الهبات الغنية المتمثلة في الطعام والمال. ومن ذلك الحين أصبحت الكسوة تنسج في (مكة) ، وأصبح الكساء أرق، مما جعله أقل مقاومة لحرارة الشمس العالية.

إن المسلمين في (الهند) الذين نقدوا سوء حكم الشريف (الحسين) علناً، لم يصبحوا أصدقاء للسعوديين. فالهنود يمثلون أكثر من ٧٠.٠٠٠.٠٠٠ مسلم، ويرأسهم رجال مثل (محمد) و(شوكت علي) أصحاب الخبرة في المناورات السياسية ضد الحاكم البريطاني، والأغلبية الهندوسية في بلادهم. فالمسلمون الهنود بمختلف مذاهبهم لم يكونوا على وفاق مع أتباع الدعوة السلفية [(١)].

احتاج (ابن سعود) إلى كل صبره وحكمته الدبلوماسية للتغلب على ذلك الطرف الإسلامي. وكان المسلمون يطلبون إشرافاً إسلامياً موحداً على المدن الإسلامية المقدسة، ويسألون (ابن سعود) القبول بموقف انتدابي. كيف يتمكن من تحويل هذا الطلب غير المقبول له إلى مستوى لا يتعدى النطاق الديني؟ قرر المخاطرة بعرض المشكلات المتعلقة بالطلب خلال مؤتمر إسلامي موحد ، ينظمه شخصياً في (مكة).

إنه يعرف قوة كلمته، وقوة إقناعه التي عرفه شعبه العربي بها. وسوف يجرب هذه الطريقة كذلك مع ممثلي الشعوب الإسلامية من خارج (الجزيرة العربية). وسوف يتعرفون على ضيافته في (مكة) ، وسوف ينعمون بالنظام والأمان الجديدين المسيطرين فيها. وهناك سوف يخاطبهم ويكسبهم بواسطة تسامحه وكلماته المؤثرة.

انعقد المؤتمر خلال صيف عام ١٩٢٦م، واتجهت عيون العالم كله إليه، وبصفة خاصة عيون المسلمين. ولم يكن المؤتمر هو الأول من نوعه للإسلام، الذي لا يزال يعاني من إلغاء الخلافة

---

(١) هذا غير صحيح، وإنما كانت هناك فئة صغيرة جداً باسم جمعية الخلافة لم تؤيد الملك عبدالعزيز في بداية الأمر لعدم وضوح الحقائق لأعضائها بينما كانت علاقة المسلمين في الهند بالملك عبدالعزيز قوية.

من قبل (كمال باشا). وازدادت الأزمة بسبب محاولة الشريف (الحسين) تبني هذا المقام الشريف، ثم هروبه بعد هزيمته من (مكة). وقام العالم الإسلامي ببعض المحاولات لإحياء نظام الخلافة التي ميزت الإسلام من قبل، فانعقدت مؤتمرات إسلامية موحدة في (القاهرة) و(القدس)، ولكن لم تتفق الأطراف المشاركة فيها على قرار موحد. مما جعل المؤتمر في (مكة المكرمة) يُحيي الأمل لدى الكثيرين. ويمثل سبعون مندوباً كل الشعوب الإسلامية. في حين لم يحضر مندوب من (العراق) أو (الأردن)، حيث تولى التمثيل أبناء الشريف (الحسين)، الملك السابق. وكذلك غاب المسلمون من الفرس ، حيث إن الشيعة يمثلون الجانب الخارج على الإجماع.

افُتتح المؤتمر بخطبة من الملك، دعا المندوبين للمناقشة والبحث عن أفضل الطرق لتحسين (الحجاز) أخلاقياً ودينياً، على أن تكون هذه الطرق مرضية للخالق والعباد. لم يتطرق النقاش إلى ملكه والمشكلات الإدارية لبلده، ورفض كل محاولات التدخل في شؤونه الداخلية والنقد الموجه لأعماله، خاصة من ممثلي (الهند). لم يؤد المؤتمر إلى نتيجة فعالة. وكان دليلاً على عدم الوحدة بين الدول الإسلامية، وعدم وجود القدرة على السير في طرق جديدة، في زمان واجه الإسلام فيه قضايا وإمكانيات جديدة. كان ممثل إندونيسيا رئيساً عجوزاً، السيد (تيوكرو أمينوتو). وكانت اللغة المستخدمة خلال المؤتمر العربية الفصيحة، وتغلب ممثلون من (الهند) على هذه الصعوبة عن طريق استخدام اللغة الإنجليزية. ولكن شعر السيد (تيوكرو) بأنه لم يستطع التأثير في المحادثات؛ نظراً لعدم قدرته على استخدام اللغة العربية. وكان تابعه (حجي أخوس سالم)، في وضع أحسن منه، فخلال المؤتمر المنعقد في (مكة) في العام التالي تحدث مستخدماً اللغة العربية ، نتيجة للسنوات التي قضاها في وظيفة سكرتير قنصلية (هولندا) في (جدة). وإذا تمكن (حجي أخوس سالم) من لعب دوره من قبل، فقد يكون لبلده أثر أكبر في نتائج المؤتمر في (جدة).

لم يتحقق أي شيء من القرارات والتوصيات التي تكررت خلال المؤتمر الثاني في (مكة). واختُبر (ابن سعود) اختباراً مهماً، وعَلِم العالم، وخاصة الدول الإسلامية أنه رجل لا يُخرج

من (الحجاز)، وأنه سوف يحكم حكماً ليس متعصباً، بل مقبولاً لجميع الاتجاهات الإسلامية. وأنه لا يكتفي بالأقوال، ولكنه يقوم بالأعمال.

أعطى (ابن سعود) (الحجاز) والحج انتباهاً إلى الحد الذي جعله يبعد عن (نجد) مدة طويلة جداً، فبقي حوالي سنتين متصلتين في الأراضي المقدسة، لأنه التقى هناك بالعالم الإسلامي كله، وأراد أن يتعرف على المشكلات المتعلقة به عن طريق العلاقات الشخصية مع الرجال المهمين القادمين من تلك الدول، وكل اتجاهات الإسلام.

وشاهد ممثلو الدول الأجانب أعمال الملك باهتمام كبير. وبدا لهم بسرعة أن (ابن سعود) رجلٌ كبيرٌ يعرف حدوده ويقيد نفسه إلى هذه الحدود. وذكر بوضوح أنه سوف تصبح (مكة) تحت حكمه، ولن يسمح بالتأثير السياسي في الحجاج. وفشلت المحاولات المدبرة من قبل (الاتحاد السوفيتي) للقيام بدعاية ضد الغرب بين المسلمين القادمين من مستعمراته. وقام رؤساء المنظمات الوطنية الذين سافروا إلى (مكة) من (إندونيسيا) و(الهند) و(المغرب الفرنسي) بطلب الحصول على دعم لقضاياهم من الملك الجديد. ونما بين (ابن سعود) والحكومات الغربية ثقة إلى درجة لم تكن متوقعة منذ زمن، بين حكومة الأراضي المقدسة والحكومات الغربية. وكان أول حاكم في (مكة) يجرؤ على إرسال أحد أبنائه إلى (أوروبا) لنقل كلمة الشكر إلى الحكومات التي اعترفت به ملكاً على الأراضي المقدسة. وأرسل الأمير (فيصل) مراراً، وأصبح ممثله للعلاقات الأجنبية. وبعث كذلك ابنه الأكبر الأمير (سعود). وبذلك أوجد علاقة شخصية بينه وبين الحكومات الغربية والملوك الأجانب، وتحسنت ظروف بلده نتيجة لذلك. وكان قوياً ولذلك ملك الشجاعة اللازمة لإعطاء الثقة التي علت على الآراء المسبقة.

كان ثمة شيء آخر لفت انتباه المشاهد الأجنبي باهتمام، وهو: هل تنجح الدولة السعودية فيما لم تتمكن من تحقيقه محاولة الإصلاح الأولى التي قام بها الشيخ (محمد بن عبدالوهاب) بالتعاون مع (آل سعود)، عندما تعدى الحدود الروحية (لجزيرة العرب) في (مكة). ولم تكن

الظروف حينذاك جاهزة للإصلاح الجذري كما هو الآن. وانقضى أكثر من قرن، وتطورت ظواهر الأزمة ، ونما الاستعداد للسير على طرق الإصلاح.

من (القاهرة) شاهدنا مجيء (رشيد رضا)، رئيس حركة الإصلاحيين في الأزهر، الذي دعا إلى آراء (جمال الدين الأفغاني) و (محمد عبده). جاء (رشيد رضا) إلى (ابن سعود) ليناقش معه إمكانيات توحيد الطريق لإصلاح الإسلام. ولكن لم يحدث هذا التوحيد، وبقي الرجل في (باطن الجزيرة العربية) وحيداً تجاه الأسئلة الروحية العظيمة المترتبة على أزمة الإسلام. واستمعنا إلى أجوبة العلماء من الرياض الذين يصيغون فتاواهم في (مكة) إجابة عن الأسئلة المرسلة إليهم، وكانت عباراتهم مثل كلمات الماضي القديم [1].

ضعفت توقعاتنا لنظام يبعث الإسلام الدنيوي الروحي، تلك التوقعات التي نمت خلال الفترة الأولى، بعد تعرفنا على (ابن سعود). ولكنها خابت تماماً بعد بداية سيل الذهب والنفط[2].

شاهدنا مشكلاته الكثيرة المتعلقة بقيادته الروحية. وكان من الضروري اعتدال مستشاريه السلفيين. وسمح لهم بتطبيق طرقهم الصارمة النجدية في البداية. فكان التدخين والموسيقى وارتداء الزينة والملابس الحريرية ممنوعاً منعاً باتاً. وكان أداء الصلوات الخمس داخل المسجد إجبارياً. وكان الدعاة يمشون بعد الأذان بعصي طويلة عبر الشوارع صائحين «الصلاة، الصلاة!» [3].

---

(١) لا شك أن إجابات العلماء متفقة مع المصادر التي يعتمدون عليها، وهي أساسية، ولا تتغير، لذا عبر المؤلف عن تلك الفتاوى بأنها مطابقة للماضي.

(٢) هذا التوقع من الكاتب مخالف للواقع، فقد استثمرت الدولة السعودية تلك الثروة في تثبيت قواعد الإسلام في شتى مجالات الحياة داخل (المملكة)، وامتد هذا التأثير إلى خارج (المملكة)، ففتحت المعاهد والمدارس الإسلامية في الدول الإسلامية وغير الإسلامية، وبنيت المساجد، وارتفع صوت الأذان في أنحاء كثيرة من العالم.

(٣) هذه ليست طرق نجدية كما قال المؤلف، وإنما هي مبادئ إسلامية تدعو إليها المصادر الأساسية (القرآن الكريم والسنة النبوية).

ومن لا يذهب إلى اتجاه المسجد بعد الأذان، يتلقى سريعاً مساءلة خشنة. وأغلقت المحلات في السوق بسرعة، وذهب الناس إلى المسجد أو اختبؤوا في بيوتهم خلف الأبواب والنوافذ المغلقة. خمس مرات في اليوم كانت المدينة تظل ساكنة، ويسيطر السكون على كل مكان فيها. ويخرج صوت القراءة الجماعية من المساجد متقطعة بكلمة «آمين» من جميع المُصلين. أحياناً تتم مراجعة المصلين عندما يخرجون من المساجد. أجبر المهملون على تأدية الالتزامات الإسلامية الظاهرة على نحو رسمي، بواسطة سلطة الشرطة أو باستخدام العصي الطويلة. وطبقت هذه الطريقة في كل مكان باستثناء مدن الأراضي المقدسة.

من رأى الوجوه الصلبة لمؤيدي الدين، ومن سمع أصواتهم القوية في الشوارع الهادئة والخالية في (الرياض) بعد الأذان، ومن سمع ضربات العصي الطويلة على الأبواب والنوافذ، لا ينسى بسهولة محاولات ممارسة الإصلاح الجدية. شرع (ابن سعود) في تطبيق العقوبات الشرعية: قطع اليد أو الرجل للسرقة، جلدٌ للسكر، والقتل بالسيف أو رمياً بالحجارة لجرائم حدية. كانت العقوبات المطبقة والمنفذة تتم في الميادين العامة من المدن، وعادة أيام الجمعة بعد تأدية الصلاة في المساجد. وكانت العقوبات إيجابية ما دام تطبيقها على المواطنين، ولم يكن تطبيق العقوبات الشرعية على غير المواطنين ينفذ، إذ لم تقبل الحكومات الأجنبية بتطبيقها على مواطنيها[1].

تدريجياً أبعد (ابن سعود) نجدييه عن المدن ، وترك المحافظة على الالتزامات الدينية والأخلاق العامة إلى الناس الذين لديهم العلم. وتم تشكيل لجان « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الموجودة في كل أنحاء البلد ، والتي كانت قوية في البداية، ومن بين السكان المحليين. ولكنها كانت تحت إشراف مركزي روحي من قبل الدولة.

(١) هذا الرأي غير صحيح فالعقوبات الشرعية تطبق داخل (المملكة) على الجميع، فالدولة تفرض سيادتها على جميع أراضيها، والكل سواء، ولا فرق بين مواطن وغير مواطن، فالعقوبات تطبق على كل من يقيم داخل (المملكة) بغض النظر عن جنسيته.

لاحظنا شخصياً الصعوبات التي كان يواجهها في الاتصالات الدولية، وأحياناً خلال الاستقبالات العامة التي أحبها الشعب جداً، حيث كان يحضر عادة عشرات من نبلاء (المدينة) وبعض العلماء من (نجد) وعدد من الضيوف مختلفي الجنسيات. وفي يوم من الأيام قابلنا هناك (شكيب أرسلان) السوري المعروف الذي عاش في (جنيف)، التي كانت مدينة عصبة الأمم المتحدة. وجاء ليحاول إقناع (ابن سعود) بعدم الدخول في الحرب مع جاره الجنوبي، الإمام (يحيى) من (اليمن).

كان (شكيب) بليغاً ومتأكداً من أن الحجج كانت إلى جانبه تماماً. فحاول إقناع عربي شقيق بعدم البدء في الحرب بين الأخوين مستخدماً لغته المؤثرة. واستمع الملك إليه بابتسامة ورفق، وعلق بملاحظة نقدية من حين إلى آخر. وأصبح (شكيب) متأكداً من أنه على وشك النجاح في محاولته لإقناع الملك. وقال في حجة حاسمة أخيرة: « فكروا جلالتكم في كل الهموم، وازدياد العمل النهائي عندما تبادرون إلى الحرب!».

عندما أتم (شكيب) كلامه، ضحك (ابن سعود) ضحكته الجذابة: « يا صديقي الكريم (شكيب) ما أخطأت! تقول يزداد العمل إذا بادرت إلى الحرب؟ أقول لك الحرب، راحة ونعمة. الحرب أحسن وقت لي. في وقت السلام يجيء رؤساء القبائل والعلماء بشكواهم وطلباتهم. ويبقون فترة طويلة جداً في قصري للتمتع بالطعام الجيد. تقول ألف؟ أقول لك ثلاثة أو أربعة آلاف يتمتعون بضيافتي في (الرياض). إذا جاء الأمر بالحرب فيثبون من مكانهم ويحضرون جمالهم ويستلمون حصتهم من التمر والدقيق والذخيرة من المستودعات ويذهبون إلى الحرب. يالها من راحة لي، أحسن وقت لي أقول لك عندما أقوم بالحرب». يضحك الملك ويقهقه النجديون بالضحك، وحتى (شكيب أرسلان) يبتسم.

ليست لدى (ابن سعود) أجوبة عن بعض الأسئلة الدينية المتعلقة بالعصر الجديد. فماذا عليه أن يفعل؟ كان بجانب سلفه (محمد بن سعود) الشيخ (محمد بن عبدالوهاب) الذي كان مكلفاً بالإجابة عن مشكلات الحياة، بينما ركز الإمام على المحافظة على الحكم بسيفه، ونشر الاعتقاد الجديد والتهذيب الخاص به.

وقف (ابن سعود) وحده، ليس بجانبه رئيس روحي، فهو مدبر صحراوي كبير، وعالم وزعيم ودبلوماسي مدرك للسياسة العالمية، وهو ليس رئيساً روحياً فعلياً. هو الأخير في زمانه وفي ذلك هو كبير. تدخل (المملكة العربية السعودية) في عالم التقنية الحديثة، وهي غير جاهزة روحياً(١).

قدم (ابن سعود) كثيراً من الأمور الحسنة لبلده ، ولكن لم يقدم البلد كثيراً من الأمور الحسنة له ولا لمؤيديه وشعبه. وانتبه إلى الحج انتباهاً كبيراً. فأعطى الحجاج الأمان والضمان القانوني مباشرة بمجرد حضوره الشخصي. وتحسنت الظروف الصحية المتردية. وسمح بدخول بنك، هو (البنك التجاري الهولندي)، وبمساعدة خبراء البنك تحسن دوران المال وأقرت عملة لبلده. ولم يحدث للحجاج نقص في الماء أو الطعام اعتباراً من بداية حكمه، وقد مضى الزمان الذي كان الحجاج فيه ضحايا للبدو . وقدّم (ابن سعود) الخير لمئات الآلاف من المسلمين القادمين من كل أنحاء العالم إلى بلده لأداء الحج. فلماذا لم يشكره هؤلاء الناس المحميون ضد اللصوص والجوع والعطش وأخطار الأمراض المعدية خلال رحلتهم في بلده ، وعادوا إلى مدنهم وقراهم بعافية بعد الوفاء بالتزاماتهم الدينية؟ من المحتمل أن يكون السبب في ذلك أنهم دفعوا كثيراً لهذا الأمان ، ولم يعرفوا الأوضاع السيئة جداً قبل أن يتولى (ابن سعود) الحكم.

من المحتمل أن أغلبية الحجاج من (إندونيسيا) شعروا بذلك. لا أحد يقدر دور الملك (ابن سعود) إلا هؤلاء الذين تمكنوا من المقارنة بين الظروف الحالية والظروف الماضية. وإذا كانت رسوم الملك (ابن سعود) مرتفعة فلم ينجم ارتفاعها عن جشعه أو فساده. ولم يعرف البخل وكان يكره هذه الخصلة في الآخرين. وكان يعاقب على عدم الأمانة ، ويحجز الأموال التي تم

(١) رؤية المؤلف هذه غير صحيحة، لأن الملك (عبدالعزيز) كان متديناً ومن المطلعين على العلوم الشرعية من جهة، ولديه العديد من العلماء من أسرة (آل الشيخ) وغيرهم من جهة أخرى، وما قام به الملك (عبدالعزيز) خلال حياته يتناقض مع رؤية المؤلف هنا، حيث نجح الملك (عبدالعزيز) في دخول عصر التقدم والتحديث مع بقاء الالتزام بالدين وجوهر مبادئه.

الحصول عليها بطريقة غير شرعية. ويعاقب على الأعمال الخاطئة باعتدال يدهش الغربي ، بل يفهمه ويقدره الشرقي الذي لم يعرف إلا الإدارة الفاسدة. ويعرف (ابن سعود) ضعف موظفيه، ويصبر على ذلك الواقع الذي لا مفر منه. ولم يكن هو شخصياً يهتم بالأموال. وكان لا يستخدمها لصالحه ، ولكن لصالح الآخرين، في ضيافته الشرقية وسخائه. وكان حريصاً على أن يستفيد شعبه من سخائه، وأن تضع إدارته الحكومية الأساس لتنظيم مالي مضبوط.

٨- ابن سعود والقضية الفلسطينية

واجه (ابن سعود) مسألتين عربيتين مهمتين نتيجة لمسؤوليته عن الأراضي المقدسة وعن الإسلام ولا مناص منهما. قرر لنفسه في البداية أن تكون حدود (الجزيرة العربية) حدود اهتمامه ، وقيد نفسه إلى تلك الحدود خلال معظم حياته باقتناع، ولكن تطور قضايا الشعوب العربية ترتب عليه أن يقرر توسيع اهتمامه بقضاياهم، وفي أول الأمر شكلياً وفيما بعد عملياً. في الحقيقة لم تكن مسألتين ، ولكن مسألة واحدة، ظهرت بعد تأسيس اليهود لدولتهم في فلسطين البلد العربي الإسلامي، وهذه المسألة لم تكن مسألة جامعة الدول العربية بل مسألة الدول العربية كلها. وبظهور خطر الصهيونية اليهودية على فلسطين أجمعت سبع دول عربية على تجاوز الخلافات التي بينها وتوحيدها في عصبة، وهذا الأمر لم يكن ممكناً لولا ظهور هذا الخطر لفترة طويلة.

إن الخطر الصهيوني أصبح كبيراً إلى الحد الذي جعل الشعوب العربية والإسلامية تنسى كل خلافاتها وتتوحد ضده.

ويأخذ (ابن سعود) قراره غير المتوقع وبعيد المدى ، ويرفع صوته ضد الجور الذي سببته (بريطانيا) ، فهو لن يسمح بتطوره عندما ينمو حتى فوق قدرته. إن الشعب العربي، والشعب الإسلامي الشقيق، يهدد بالطرد عن المنطقة التي سكن فيها لمدة قرون. إن (بيت المقدس) حيث يوجد الجبل الذي بدأ منه (الرسول) صعوده إلى السماء، حيث يوجد المسجد الأقصى ومسجد (عمر)، في المدينة الثالثة في ترتيب الأماكن الإسلامية المقدسة ، سوف تصبح مدينة يهودية، والإنجليز هم الذين سمحوا بدخول اليهود ضيوفاً في بلد عربي ، وسوف يطردون مضيفيهم باستخدام الحيلة والمال الذي اشتروا به الأراضي في النهاية بالقوة. لا يجب أن يخل (ابن سعود) الآن بالمبدأ الذي وضعه لنفسه. ويجب أن يترك بلده ويتجه لتنفيذه بكل ما يمكنه فعله لمنع هذا الجور .

وفي ديسمبر ١٩٤٤م، تقترب الحرب العالمية الثانية من نهايتها. وسوف ينتهي السلام الإلهي في (فلسطين) أيضاً. وسوف يضرب اليهود بعنف. ويعرف الحكام البريطانيون ذلك. وهذا ما يخافه العرب الفلسطينيون غير المتطورين وغير المنظمين ، ويعرفه - أكثر من كل الآخرين - اليهود أنفسهم، الصهيونيون الذين بنوا بيتهم الوطني عليها ، والذين أعدوا أنفسهم سراً للقتال حتى الموت. ولا يبخس (ابن سعود) تقدير قوتهم ، وفي الوقت نفسه يلاحظ ضعف جامعة الدول العربية التي تأسست حديثاً ، والتي يتطلب منها إيقاف الصهيونية. ويقرر (ابن سعود) أن يتكلم مع الرجلين اللذين أعجب بهما أثناء رئاستهما للحرب العالمية الثانية - (تشرشل) و (روزفلت). وسوف يكونان في (مصر) بعد المؤتمر مع (ستالين) في (يالطا). هناك سوف يلتقي بهما. ويحفظ خطته سراً للمرة الأول. وبعد أن بقينا عشر سنوات في مملكته دعانا الملك لزيارته في العاصمة (الرياض) منذ أن ولي الحكم. غادرنا (جدة) في سيارة صحراوية. إن درب الملوك، الطريق الذي يربط أهم مدينتين في المملكة، (مكة) و(الرياض)، ليس طريقاً ، ولكنه درب صحراوي عريض، من الممكن معرفته بواسطة الآثار العميقة التي تركتها عجلات السيارات الكثيرة في مساحة عرضها بعض الكيلومترات. ويجب قيادة السيارة بسرعة عالية لكيلا تتوقف في الآثار العميقة المكسوة بالرمال المحروثة. وتسبب الاهتزازات في الطريق كثيراً من الكسور ، وتظهر عدم كفاية المحاور الاحتياطية الخمسة التي أخذناها معنا للوصول إلى هدفنا.

ليس من المسموح للمسيحي أن يعبر المنطقة المقدسة المحيطة (بمكة)، أشار بذلك المرشد الذي أرسله لنا الملك واتجهنا عبر درب النصارى، الحاجز الأول على طريقنا البالغ طوله حوالي ألف كيلومتر. ولسوء الحظ سقطت الأمطار شهراً قبل الوقت العادي، بالإضافة إلى ازدياد معدل الأمطار على السنوات السابقة. والمساحات الصلبة أصبحت بحيرات وجرت السيول المخيفة عبر الوديان الصخرية ، وتغيرت المرتفعات الواسعة إلى مساحات من الأوحال اللينة والعميقة.

لا نعرف كيف يسافر الملك في هذا الوقت ، ورحلته أصعب من رحلتنا ، حيث إنه يسافر بصحبة أكثر من مائتي شاحنة عبر المرتفعات الباردة الواقعة في (وسط جزيرة العرب). وعندما

نقترب من (الرياض) على مسافة رحلة يوم ونصف يبدأ السير الملكي من جديد بعد أسبوع من الانتظار في الوحل. ويخيم قرب (مراة) وهي بلدة تقع في واحة صغيرة. إنه منظر رائع عندما تقترب الشاحنات المهتزة والمنحنية ببطء وبصعوبة على طريق الصحراء. حيثما ننظر نشاهد الشاحنات والصفوف الطويلة من البدو الذين يسحبون الحبال لجر الشاحنات الغائصة في الوحل من مكانها. وتدريجياً يكون أمام قصر (مراة) مخيم من الشاحنات . وتقام الأعمدة لمحطتي الاتصال الناقلتين، في الوسط توضع الخيمة الصغيرة للاستقبالات والخيمة الملكية بجانبها. وعلى حافة المخيم يوجد مخيم الطبخ وقطيع الخرفان للذبح والعربات المحملة بالحطب والمقالي والغلايات الكبيرة. بجانب مخيم الطبخ يوجد مخيم النساء ، ويذكر أن الملك قد يقرر السفر بدون زوجاته، ولكن عندما أوقفته الأمطار أمر بإحضار زوجاته وزوجات كبار المرافقين لصحبته. وبعد إنشاء هذه المدينة المكونة من الخيم والشاحنات وعند إضاءة النيران والمصابيح يجيء الملك في سيارة كبيرة ، تتبعها عدد من السيارات التي يجلس فيها أصحابه ، وتجلس النساء إما في سيارات مزودة بنوافذ سوداء أو ذات ستائر. ونبلغ جلالته بحضورنا ، ويدعونا ذلك المساء إليه.

ندخل الخيمة الصغيرة المعدة للاستقبالات بين الجنود المرهقين كنا نرتدي بدلة غربية، ونرتعد من البرودة ، بسبب الريح الصحراوي الليلي. وكان الملك ودياً كعادته، ولكنه لا يتابع محادثاتنا بكل انتباهه المعتاد. ويزعجنا مراسلون داخلون ببرقيات مراراً ، وإذا سألناه إلى أين يسافر يجيبنا الملك:« إلى الغرب ». هذا ما رأيناه بأنفسنا ويعني: « ليس من شأنكم». سألت هل نقابلكم في قصركم يا جلالة الملك؟ يرد الملك بأنَّ ابنه، ولي العهد سوف يستقبلنا ، ويقول بابتسامته اللطيفة العجوزة:« سوف يكون مضيفاً طيباً لكم». تتواصل المحادثة بتقطع. ويفكر الملك في حاجات أخرى. وكان هناك أمر يشغل كل اهتمامه. ويدخل سكرتيره بمجموعة من البرقيات التي تدل على تشغيل كلتا محطتي الاتصال على قدرتهما القصوى ، ويجلس السكرتير جنب رجلي الملك الذي يقرأ البرقيات بكامل انتباه، حيث يبدو أنه نسي ضيفه. وودعنا الملك بشعور غير مرضٍ جداً بالنسبة لهذا الاستقبال الذي قد يكون آخر استقبال مع

هذا الرجل العجيب. فيم فكر الملك ، وإلى أين يسافر فجأة بهذه الصورة السرية؟ الجو في غرفتنا الطينية الباردة المتسخة في قصر (مراة) يساوي الليلة الصحراوية خارجه حيث تسقط الأمطار الشتوية الباردة.

في وسط الليل يوقظنا خادم ، ويحضر معه رسول من الملك، ويجيء معهم المشرف على قصر الملك ، ويتبعه خدم سود يحملون طروداً على رؤوسهم. ويسلم الرسول الملكي علينا باسم جلالته ، ويسألنا عن مبيتنا؟ عليه أن يخبر الملك عن نوايانا ويعطي هدية لكل فرد من جماعتنا حتى أدنانا. ويتقدم الخدم ويضعون طرودهم. ونفرغ محتويات الطرود وهي كنوز في رأينا: ملابس كاملة، ملابس بدوية ملكية جميلة ودافئة وعملية، وبالإضافة إلى ذلك خنجر في غمد ذهبي لي. ويجيء الخادم الأخير بخروف سمين في الغرفة بدلاً من الوجبة التي لم تقدم لنا نظراً للظروف. وعندما لاحظ المشرف أننا نسافر بدون خيمة أمر بإحضار شاحنة تقل خيمة ، وسريعاً ينشئ الخدم خيمة كبيرة لنا. وسوف ترافقنا تلك الشاحنة والخيمة والخدم معاً في رحلتنا دليلاً على الاهتمام الملكي بنا. وأخيراً يدعونا الملك إلى المحادثة معه قبل مغادرته في الصباح التالي ، وتطير البرودة من قلوبنا لهذه المحادثة ، لم ينتهِ وداع الملك بعد فهناك إمكانية لمقابلة حقيقية جديدة معه.

لم نرتد في الصباح التالي بدلتنا الغربية التي نعتبرها قبيحة وغير مناسبة وغير طبيعية وغير عملية في هذه البيئة، وارتدينا العباءة الملكية العريضة والغترة الصوفية الكشميرية، مثل بدوي بين البدو، كما ينبغي في الصحراء. وخيمة الاستقبال الكبيرة جاهزة الآن. وسرنا بخطوات هادئة طويلة بين صفين من الجنود الذين يحملون البنادق إلى مدخل الخيمة.

وفي جوانب الخيمة يوجد صحبته من الرجال، ومن ضمنهم العلماء من (نجد) ، وشيوخ هذه المنطقة ، والإخوان بعماماتهم البيضاء ، ووجوههم المتحمسة. ويجلس الملك وسطهم قريباً من قماش الخيمة. وكان الاستقبال ودياً وبسيطاً كأننا منهم. ويسمح لي جلالته بالجلوس إلى جنبه ،وتبدأ المحادثة، توجّه الكلمات لي، ولكنها موجهة للحاضرين الكثيرين الواقفين في

صفوف متعددة بجوار جوانب الخيمة. وتتجه كل العيون المغطاة بالكحل نحو الملك، الذي يتكلم عن الحرب العالمية، وعن الحلفاء الذين لهم الحق ، وعن العرب قليلي العدد الذين سيطروا على العالم في الماضي. هل لهذا معنى؟ هل لديهم مهمة بعد؟ ويتكلم بإقناع في لغته البدوية الرائعة باستخدام أسلوب خيالي جذاب. ويستمع الحاضرون إليه بتوتر ، وهذه المقدمة فقط. إلى أين يريد؟ ويستمر الملك ويتكلم عن الأخطار المهددة لهم الآن. من أي طرف؟ من أعداء (محمد)! إنهم اليهود! يذكرهم بتاريخهم الملآن بثورات ضد (الله)، ودورهم في التاريخ العالمي ، حيث أضروا بكل شعب سكنوا بينه. اليهود عدونا اللدود من زمن معارضتهم (لرسولنا) (صلى الله عليه وسلم)، في (المدينة). وتغلب (الرسول) عليهم وطردهم. لا نريد أن نأخذ موقف (هتلر). سوف نواصل في ضيافتنا العربية كل يهودي أيضاً طالما يتصرف كالضيف. اليهود هم الذين لا يتصرفون كالضيوف، مثل الصهيونيين في (فلسطين)، الذين يحاولون طرد شعب عربي ضعيف وصغير عن وطنه لعنهم الله! نحن العرب لن نشاهد هذا الظلم بدون إجراء ، وسوف يقف الإخوان المسلمون في البلدان الأخرى بجانبنا. هؤلاء اليهود المعتدون على الضيافة العربية... ماذا نقول عنهم بعد؟ فلنستمع إلى كلمة الله في القرآن. رُدِّدت عبر الخيمة النصوص التي تنص على مرارة الخلاف بين (محمد) و(اليهود) في (المدينة). والذي يقرأها ليس الملك المضيف اللطيف بل هو ذلك المسلم الإمام. ويطلب موافقتهم لتنفيذ الإجراء المنوي اتخاذه. وإذا وصلت خطبته إلى قمتها يملأ صوته الخيمة الكبيرة مثل قوة الإعصار فيتوقف. وينظر الرجال بجوار جوانب الخيمة إلى ملكهم بعيون يتلهب فيها البغض ويبقى ساكتاً لحظة...

« نعم، مضبوط والله »!

حينئذٍ يتذكر الملك حضوري، ويسترخي وجهه ، ويصير صوته القاصف قبل لحظة ناعماً ولطيفاً. ويضع يده على ركبتي ويقول: « وأنت يا صديقنا الهولندي ما رأيك في اليهود؟ تكلم، أنت بين أصدقاء». أشعر بأن الأرض تنزل من تحتي. فقد استمعت إلى الشكوى ضد طرف غائب وبالتالي لا أملك إمكانية الدفاع لقلقي المتزايد. تمَّ رسم أصل الخلاف الراجع إلى

طفولة الإسلام بمهارة. وتمّ وصف التطورات في التاريخ بصورة متحيزة [1]. كيف عزفت يد ماهرة على الغريزة الحساسة لناس بسطاء! لم أتوقع أن أكون متورطاً في الموضوع. تمر عيناي بالرجال بجوار جوانب الخيمة وأرى النظرة الباغضة للصفوة السعودية. لا يفهمون لماذا يذهب الملك بشرفه تجاه الضيف الأجنبي إلى حد أنه يسأله عن رأيه في هذه اللحظة؟ رأي نصراني! هل يهتمون برأيه؟ حتى لو جرؤ على نطق كلمة طيبة واحدة عن اليهود الحقيرين؟ ولما لم يجئ رد، نظر الملك إليَّ ، ولاحظ كيف تمر نظرتي بصفوف المستمعين وظن أنه يفهمني.

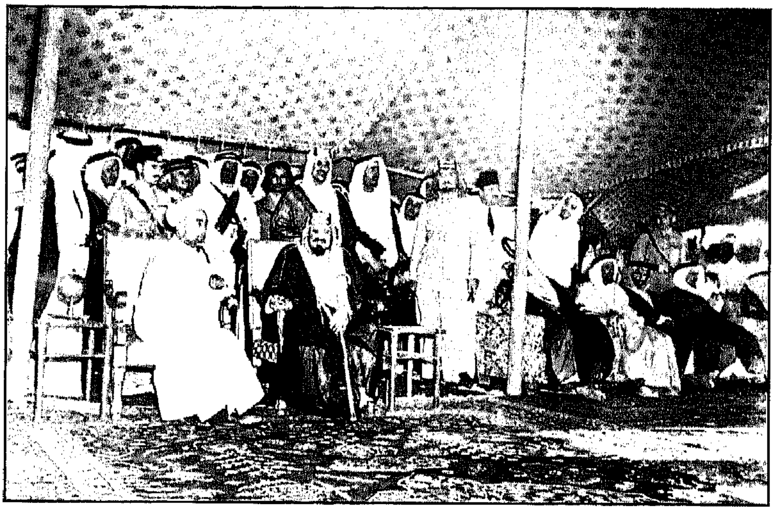
« لم أسألكم كمندوب هولندي ولكن كصديق، كرجل بين أصدقائه».

يمكن أن يقول الملك هذا ولكن تختلف الحقيقة، فسوف يعتبر شيوخ الصحراء هؤلاء كل كلمة مني كالرأي الرسمي الهولندي. ولن يفهموا ولن يقدروا. لا أستطيع أن أسمح لقلبي أن يقودني لأقول شيئاً لصالح الشعب الذي تمّت مهاجمته بتلك المرارة، ولا أحد تكلم دفاعاً عنه. هذا بين شعبين ناجمين عن الخيمة نفسها، خيمة إبراهيم، أخوين تفصلهما هاوية. ليس من الممكن أن يطول سكوتي أكثر وأقول شيئاً عن الخلاف الدائر الموجود في الماضي القديم، الخلاف في نواحٍ كثيرة ، وكان من الأفضل عرضه أمام محكمة عصبة الأمم. يهز (ابن سعود) رأسه ، ويتساءل الحضور فيما بينهم: «ماذا قال هذا النصراني المتمتم؟» يريدون القتال ولا شيء آخر.

في الواقع يرون المحادثة بين ملكهم والرؤساء الغربيين فقدان للوقت والطاقة، ولكن إذا اعتبر الملك المحادثة ضرورية أطاعوه.

انقطعت المحادثة المؤلمة فجأة – لحسن حظنا – في هذه النقطة. ودخل سكرتير (ابن سعود) بمجموعة من البرقيات. وانهمك الملك فيها حالاً استعداداً لظهوره الأول على المسرح العالمي

(١) يعتبر المؤلف وصف الملك (عبدالعزيز) لتاريخ (فلسطين) متحيزاً من وجهة نظره التي لا تقر الحقوق التاريخية للعرب المسلمين في (فلسطين). وهذا رأي المؤلف ولكن الأدلة التاريخية تؤيد ما رآه الملك(عبدالعزيز).

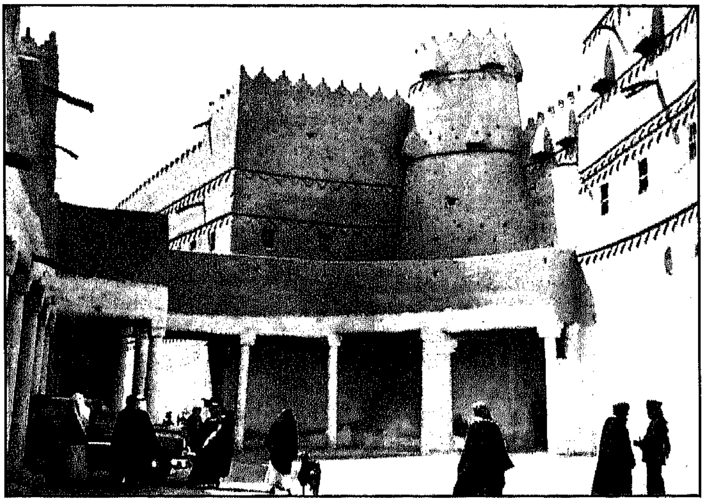


١٨- مقابلة في خيمة الاستقبالات الكبيرة في الصحراء خارج (الرياض).

الملك (عبدالله) من الأردن مع الملك (ابن سعود).



١٩- الملك (ابن سعود) وبعض أبنائه في أعلى القصر. ولي العهد واقف خلفه على اليسار.



٢٠- قصر الحكم (بالرياض).



٢١- الأمير (خالد السديري).



٢٢- (هاري سانت جون بريدجير فيلبي) أمام منزله (بالرياض).

خارج (الجزيرة العربية). ولم يلاحظ أننا نقف بعد مدة ونودعه في سكوت تام. وانتهى الاستقبال وانخفض التوتر العالي. وانقضى السكوت المنقطع من قبل صوت الملك وغمغمة موافقة المستمعين فقط. وتحرك المستمعون الساكنون وتكسرت الصفوف الضيقة ، وكانوا يتكلمون في جماعات صغيرة بهدوء، ربما عنّا. أو ربما لا يهتمون بالأجنبي إلى هذا الحد؟.

ويكثر علينا الازدحام في المخيم ، وتعم الفوضى خارج خيمة الاستقبال الكبيرة، ومايزال حراس الشرف يقفون هناك ، ونحن مسرورون لوجودهم قبل أن نبتعد عن هؤلاء المتشددين، ونبتعد عن الناس لنفكر فيما عملنا ، فإن كان خطأً يمكن أن نتصرف أحسن. لذلك كان من الضروري أن يسيطر الواحد منا على تلك اللغة الرجالية ذات التصورات الناجمة عن (نجد) المرتفعة مثلما سيطر الملك عليها، وكان من الضروري أن يعرف أحدنا الوهابيين مثلما يعرفهم، ويستخدم مهارة التخاطب مثله. وكان مستحيلاً التحدث مثل الملك، رئيس البدو وإمامهم. وقد فشلنا أثناء لحظة مهمة جداً، ولم نعرف كيف كان بإمكاننا استخدام فرصة عظيمة كهذه، ويدفعنا تقريح الذات عن مكان نقصنا. وأمامنا -مباشرة- يوجد التل المنفصل المميز بالممرات، طريق ممدود وعريض. بطبيعة الحال نذهب هناك للهروب من فوضى المخيم ، حيث نشعر باستمرار بنوع من الحقد ضدنا. لا أحد ينتبه إلينا عندما نصعد ونتسلق بسرعة بين الصخور، ويحيط بنا هدوء رحيم. ويستمر اتهام الذات ، ولكنه يهدأ. ونرجع للاستقبال الكامل، خطبة الملك والتأثير المغناطيسي الناتج عنها في المستمعين إليه ، وتأثير خطبته التي كانت بسيطة وإسلامية وغير موضوعية ومشكوك فيها من الناحية التاريخية [1]. بينما كنا نتسلق أعلى وأعلى ننظر من جديد لنرى كيف يوجه (ابن سعود) انتباهه من إخوانه إلينا. ومن جديد نشعر بيده على ركبتنا، الحركة التي نعرفها من مقابلات سابقة، ونرى كيف تسترخي ملامحه. إن الصوت المتكلم ببغض شديد عبر الخيمة الكبيرة سابقاً، هادئ وناعم الآن. بل نضطر إلى المشاركة في محادثة ليس من المسموح لنا أن نشارك فيها بوصفنا مندوبين (لهولندا)، التي تمثل الغرب المسيحي بمركز طائفة الإسلام الكبرى.

(١) هذا رأي المؤلف الذي يمثل وجهة نظر غربية غير صحيحة، وما ذكره الملك (عبدالعزيز) عن تاريخ (فلسطين) يستند إلى الأدلة التاريخية، وليس فيه شك.

فنعارض مرة أخرى محاولة الملك بدون قصد سيئ، مرة أخرى نبحث عن إجابة أحسن من الإجابة التي أعطيناها، وهي غير مرضية للمستمعين إلينا.

وعندما وصلت أفكارنا إلى هذه النقطة نظرنا حولنا. هل نسمع حاجة غريبة؟ هل ينكسر الهدوء الرحيم؟ نعم، يجب أن يحدث شيء في المخيم تحتنا، فترتفع الأصوات. وعندما ننظر مرة أخرى إلى تحت ندرك فزعين أننا السبب لتلك الضوضاء. وهناك مجموعة كبيرة من الرجال يصيحون ويشيرون إلينا. يا سلام، ماذا قد يكون السبب؟ نلتفت حولنا ونرى رجلاً يترك المجموعة من الرجال ويتسلق إلى أعلى بأقصى سرعة ممكنة. هذا هو الدليل الذي أرسله الملك إلينا لرحلتنا إلى عاصمته. من ضمن واجباته أن يعتني بنا ويمنعنا من القيام بتصرفات غير مرغوب فيها. وحالما يقترب منا يظهر غضبه باستخدام الكلمات والحركات. كلماته قليلة ولكن حركاته الغاضبة واضحة جداً. نعم، هذا هو السبب. نحن واقفون فوق المخيم الملكي، ونتيجة لذلك لا ننظر إلى تحت على جلالته فقط ، بل أسوأ من ذلك، وأكثر رهبةً أننا نستطيع أن ننظر إلى وسط مخيم النساء الواقع مباشرة تحتنا بجوار حافة التل. لا يوجد أي اعتذار، علينا مواجهة لومٍ وعقاب أقبح. نحني الرأس ونقابل دليلنا.

بقدر ما يسمحه النقص في التنفس بدأ يشتم حالاً وقال لي:«كم مرة قلت لك ألا تذهب إلى أي مكان وحدك ، وكل مرة تعمل ما تريد. أمس وجدتك في (مراة) حيث سبَّبت حشداً من الناس، ولكن ما عملته اليوم يعتبر أفظع المخالفات لعادات الصحراء. أنت دائماً تهرب مني باستمرار. سوف أشكوك عند الملك هذه المرة».

نشعر بأننا تلاميذ مدرسة، ونعرف أنه صدَّق، ونقسم « والله وبالله» أننا لم نخطط للنظر في مخيم النساء ولا للحظة. واقتربنا من حافة التل ، حيث ينتظرنا حشد متهيِّج. يضاعف الدليل سرعته ووزن كلماته الغاضبة. ونتبعه سكوتاً بحثاً عن النجاة. فنجد خلف صفوف الجنود والخدم السكرتير الخاص بالملك. وهو قصير القامة ويرتدي ملابس بيضاء. ويعطينا إشارة بعينيه ونتجه إليه بسرعة. وينسحب الناس غضباً بعيداً عنا معبرين عن عدم رضاهم ، إذ

رأوا من يأخذ الأجنبي المذنب تحت رعايته. ويبدأ السكرتير كلامه بلومٍ أيضاً، ولكنه يتكلم بصورة مؤدبة ، ويستمع كذلك إلى حججنا. « الحمدلله أن انتهى الأمر هكذا». تصرف بحذر أكثر من الآن. تعال معي إلى خيمتي لنشرب فنجاناً من القهوة وتثوب إلى رشدك.

جلسنا معاً على سجادة ممدودة أمام خيمة السكرتير، الفلسطيني الذكي والنحيف (رشدي ملحس). وحولنا كل الناس مشغولون بإزالة المخيم، حيث إن الملك يريد مواصلة رحلته هذا اليوم إلى حافة النفود، ليشق التلال الرملية التي كونتها الرياح المستمرة. وكان عرضها ٢٥ كيلومتر وسوف تمر السيارات بصعوبة كبيرة بها. وطالما كانت الرمال باردة، وبالتالي ثقيلة، فلا تنزل السيارات فيها بعمق. وسوف يمرون بالنفود في الصباح التالي إلى (جدة) الواقعة على مسافة ١٠٠٠ كيلومترٍ من (الرياض)، حيث ينتظر زورق طربيد لأخذ (الملك) وبعض أصحابه على متنه.

لم ينتبه إلينا أحد بعد، وبعد التمتع بفنجان صغير من القهوة البدوية المُرَّة المختلطة بالهيل ، يمكن أن تبدأ المحادثة. نفهم أن هناك فرصة لنطرح رأينا عن القضية الفلسطينية إلى الملك، وذلك عن طريق السكرتير الفلسطيني، الذي لعب دوراً مهماً في الثورة الوطنية العربية، وحكمت الحكومة المنتدبة البريطانية عليه بالإعدام، فهرب إلى (ابن سعود)، المدافع عن قضية العرب، ولم يجد لديه مجرد حماية بل وظيفة مهمة. فالفرصة ليست كبيرة أمامنا ، وسوف يقدم المسألة اليهودية إلى الملك بصورة أمينة موضوعية ، إذا وجد الإمكانية لنقل كلماتنا. إنما هي الفرصة الوحيدة المتبقية لنا.

سألناه : «يا سعادة المستشار، بشأن سؤال الملك، يعني التعبير عن رأينا بحرية عن القضية الفلسطينية، كان مستحيلاً وغير عادلٍ. أليس كذلك؟».

جلالته عادل دائماً، ويمكنكم أن تعملوا ما تريدونه.

«نعم يا سعادة المستشار، صدقتم، ولكن هناك في تلك البيئة لم نستطع أن نتكلم صراحة. لن يفهموننا وسوف تعتبر كل كلمة منا رأياً للحكومة الهولندية. هنا أستطيع أن أتكلم بصراحة، وأطلب منكم نقل ما سوف أقوله لكم إلى الملك. هل تستطيع أن تعدني ذلك؟.

قطب جبين المستشار النحيف أكثر عندما وعد وعده الذي ترك مساحة كبيرة. عدّ جلالته من حيث المبدأ أن (فلسطين) بلد إسلامي عربي ، ولا يجوز لأي شعب أو لأي حكومة أخذ شيء منه إلا الشعب العربي المقيم فيها ، مدعوماً إذا لزم الأمر من قبل شعوبه العربية الشقيقة. نحن نرى أن (فلسطين) قضية غير بسيطة. وليس بلداً مثل أي بلد آخر يمكن تطبيق القواعد نفسها عليه، حيث لا يوجد بلد واحد فقط في العالم كله مثل (فلسطين). ولا ينتسب إلى شعب عربي واحد فقط ، بل ينتسب –إلى حد ما– إلى العالم كله. ولا يستحقه العرب فقط، وليس للمسلمين حقوق عليه فقط ، فلماذا يهتمون به اهتماماً خاصاً؟ ويسمون (فلسطين) بلداً مقدساً ، ولكن اليهود يقدسونه تقديساً أكبر. و(فلسطين) لهم «البلد المقدس»، بلد أسلافهم وتقاليدهم. ويظن الكثيرون منهم أنهم سوف يجدون سعادتهم في تلك الأراضي فقط ، حيث يستطيعون القيام بدينهم مثلما يطلب (الله) منهم. إن (فلسطين) البلد المقدس هو أيضاً للمسيحيين، ويظن مسيحيون كثيرون أن الحج إليه يعطيهم بركة (الله)، ولا يوجد مكان آخر باستطاعتهم أن يحيوا ويموتوا فيه بسعادة مثل (فلسطين). فعلاً ينتسب الفلسطينيون إلى العالم كله ، يا سعادة المستشار وحاكم ذلك البلد منتدب لهذا العالم. يجب ألا يحدد العرب المقيمون في (فلسطين) بمفردهم قضاء البلد ، ولا الصهاينة الذين يستقرون هناك بمساعدة (بريطانيا) في أول الأمر ، والآن بقوة وبإرهاب ، حيث إنه يعني عدم العدل تجاه أحد الأطراف المعنية لدى البلد الفريد. يجب أن يتكلم العالم كله ممثلاً في عصبة الأمم، فللقضية الفلسطينية خلفية تاريخية عميقة ذات معنى يتعلق بالعديد من الشعوب »[1].

استمع الفلسطيني إليّ بانتباه، وكان غير موافق على ما قلته. ولم تكن الموافقة من الممكن الحصول عليها من واحد تخصه القضية شخصياً، ويشعر بالجور الذي أصاب به الصهيونيون الفلسطينين. نفهم ذلك، فهل سيبلغ الملك بمقالتي التي كان من المستحيل نطقها

(١) يتجاهل المؤلف في رؤيته هذه التاريخ العربي الإسلامي في فلسطين ويركز على تعدد الديانات فيها رغم أن المسلمين والعرب اتسموا بالتسامح والعدل مع أصحاب الأديان الأخرى عندما يكونون في أراضيهم بعكس اليهود الذين اضطهدوا العرب والمسلمين.

في خيمة الاستقبال السعودية؟ وهل يمكن أن يقال (لابن سعود) نفسه؟ إذا تحدث الفلسطيني فعلاً فلن يحسن المضمون الانطباعي الذي تركناه لدى الاستقبال الرسمي، ولكنه لم يتحدث.

تنفصل طرقنا هنا. ذهب الملك غرباً إلى مصر لمقابلة رؤساء السياسة العالمية، مع (تشرشل) و(روزفلت)، فقد قبل المسؤولية الجديدة. وشرح في خيمة استقباله في (مراة) لبعض أعيان شعبه، لماذا كان من الضروري معارضة اليهود، هؤلاء الأعداء (لله) و(لرسوله). يجب عليه أن يطلب المساعدة من رؤساء العالم لتفادي الجور الذي يهدد شعباً عربياً إسلامياً ضعيفاً وصغيراً. وأن يذهب حيث الواجب يدعوه. والآن لا يعتقد العلماء السلفيون أنه ينحرف عن تقاليده، ويغادر الوطن العربي للمفاوضة مع حكام غير مسلمين. الآن تخص القضية بلاد (فلسطين) و(القدس)، المدينة المقدسة الثالثة في الإسلام.

٩- ابن سعود وجامعة الدول العربية

ترتبط القضية الفلسطينية بوحدة الدول العربية. فلقد كان للاغتصاب الصهيوني (لفلسطين) أثر كبير في اتحاد العرب حول قضية مصيرية واحدة. تردد (ابن سعود) في أول الأمر في قبول بُنية سياسية خارج نطاق رأيه الخاص (بشبه الجزيرة العربية)، وحتى كره الفكرة إلى حد ما.

ويقال إن تأسيس الوحدة العربية تم بناء على المبادرة البريطانية وإصرارها على تأسيسها، ولم يكن ذلك في الواقع توصية من (ابن سعود)[1].

سار (ابن سعود) نفسه الخطوات الأولى على طريق التحالف مع الدول العربية، حتى إنه لم يتعد حدود (الجزيرة العربية) الفعلية. وقام بهذه الخطوات بطريقة مبدعة وحكيمة كما كان يتوقع منه. ولكن عرقلت التطورات السياسية خارج (الجزيرة العربية) خطته، وأخذت منه المبادرة عند نمو الوحدة في طور تالٍ في المستقبل.

قبل أن نرى كيف أصبحت تلك الوحدة، بسبب جامعة الدول العربية، أمراً واقعاً، فمن الأفضل أن نذكر أن اتحاد بعض الشعوب العربية لم يكن شيئاً جديداً في التاريخ. فكل العرب يعرفون ذلك، ويعلمون أن الإسلام ضم قوات من مختلف الشعوب العربية خلال القرن الأول، وبها فتح العرب العالم. فكان إيماناً عربياً، وقوة قتالية عربية، كوّنها وقادها الرسول العربي (محمد) من (مكة)، مدفوعاً من قبل مؤيديه لإنشاء القواعد لبنية سياسية - روحية استغرقت عدة قرون. واعتبرت الشعوب العربية نفسها وريثة لتلك الدولة العالمية. ولكن تم تدمير البقية الباقية منها، ممثلة في (تركيا) تحت حكم الخلافة الإسلامية. فقد كانت قوة عظيمة أثناء

---

(١) هذا غير صحيح،لأن الملك (عبدالعزيز) كان يدفع العرب والمسلمين دائماً إلى التحالف والوحدة، وكانت توصيته للعرب بإيجاد هيئة تجمعهم مثل جامعة الدول العربية قد ظهرت في العديد من مقابلاته لعدد من الشخصيات السياسية، ولكنه حذر من الاعتماد على مشروعات وحدوية ذات أهداف شخصية لا تخدم العرب جميعاً.

الحرب العالمية الأولى. وكان (ابن سعود) وأتباعه متأكدين من أن تدمير (تركيا) كان عقوبة إلهية للغدر بالإيمان الصحيح. ولم تكن الوحدة العربية، بل الوحدة الإسلامية من الناحية السياسية والدينية حُلماً ، بل تطوراً محتوماً للظروف التي أرادها (الله) في ذلك الحين.

وخلال الحربين العالميتين استخدمت الأطراف المسيحية الغربية المشاركة فيهما - الشعوب العربية والإسلامية لتحقيق طموحها في السيطرة العالمية. ونتيجة لذلك نهض (الشرق الأوسط)، ووعت شعوبه أن الغرب استغل تفرقتها. ونشأت القومية العربية أكثر فأكثر على نية الاستقلال السياسي وإصلاح شعوبها، وإيمانها بالدين الذي كان ديناً عالمياً.

ولم تتحقق الوعود بالاستقلال التي وعدها الحلفاء للشعوب التي ناصرتهم في الحرب. وكان على أغلبية الشعوب العربية أن تقبل بانتداب قوة من القوات الغربية لحكمها. ولم تنس الشعوب الوعود ، ونتيجة لذلك لم يسترح المنتدبون الغربيون كثيراً عند القيام بمهامهم الجديدة.

وعندما واجهوا مصاعب الحرب العالمية الثانية كانت الأراضي العربية مركزاً للقرارات المهمة، فهي مازالت موطناً لشعوب نائمة يمكن استخدامها مقابل المال أو الوعود في المستقبل. ويظهر الاضطراب الذي وصل قمته، في (فلسطين) بل وفي دول أخرى كذلك.

وهناك نقطة واحدة إيجابية بين الدول العربية، وهي (المملكة العربية السعودية)، لأنها البلد الوحيد الذي تطور مستقلاً عن الغرب. وأصبح الملك (ابن سعود) شخصية سياسية موثوقاً بها بالكامل لدى الحلفاء.

نجحت الخطوة الكبيرة التالية في سبيل نهضة الشعوب العربية بعد الحرب العالمية الثانية. فتم تحريرها من الوصاية السياسية الغربية ، وحصلت على استقلالها لتطبيق السياسة الخاصة بها. وبذلك أدركت مكامن ضعفها الكبيرة، وتطور مفهومها لضرورة التعاون إذا أرادت أن تكون عاملاً مستقلاً في العالم ، فهي جميعها تشعر بأنها مهددة، سياسياً أو أخلاقياً

نتيجة للحملة الصهيونية على الشعب الشقيق في (فلسطين). أدى ذلك إلى الاقتناع بأن التعاون ضروري ، أو هو قضية «يكون أو لا يكون». ولكن العربي يعيش في منطقة كانت تتبع سياسة «التقسيم والسيطرة» السائدة لمدة قرون، من قبل الأتراك ، والتي تبعتها (بريطانيا) فيما بعد.

بادر (ابن سعود) بالسعي إلى الخطوات الأولى الفعلية على الطريق المؤدي إلى اتحاد عربي، وكانت سياسته على النحو التالي: بعد حرب قصيرة ناجحة ضد خصمه الوحيد (بشبه الجزيرة)، الإمام (يحيى) من (اليمن)، قدم له (ابن سعود) صُلحاً باسم الصداقة الإسلامية والأخوة العربية. وأعلن الحاكمان في اتفاقية صلحهما، أن شعبيهما ينتسبان إلى وطن عربي واحد. وعرض (ابن سعود) اتفاقية الصلح هذه في خطبه ونشراته بصفتها نموذجاً يطبق من قبل الدول خارج (شبه الجزيرة). وأبرم (ابن سعود) اتفاقية مماثلة للصداقة الإسلامية والأخوة العربية مع خصمه الآخر، الملك الهاشمي (فيصل) ملك (العراق)، والمحمي من قبل (بريطانيا). تلك هي اتفاقية (بغداد) المبرمة بتاريخ ٢ أبريل ١٩٣٦م. ويعلن فيها (ابن سعود) أنهما سوف يتعاونان لانضمام (اليمن) إليهما، وانضمام كل دولة عربية مستقلة تطلب الانضمام. وتنص المادة رقم (٧) من الاتفاقية على أن الأطراف المتفقة سوف تتعاون لتوحيد الثقافة العربية والإسلامية... إلخ.

وتظهر هنا البداية الفعلية للوحدة العربية. ويستحق الملك (ابن سعود) أن يُسمى «الأب الروحي» للوحدة، فقد قام بالخطوة الأولى لتحقيقها بطريقة مبدعة وحكيمة. ربما يكون من المبالغ فيه أن تُسمى (بريطانيا) «أبا الوحدة» كما تُسمى عادة. ولكن لا شك أن السياسيين البريطانيين شجعوا هذه الفكرة في البلدان العربية.

وينضم (اليمن) إلى هذا التحالف العربي الناشئ الناتج عن اتفاقية (بغداد) المذكورة أعلاه، في شهر أبريل ١٩٣٧م. كما وقعت اتفاقية صداقة بين (مصر) و(المملكة العربية السعودية) قبل هذا التاريخ في شهر مايو ١٩٣٦م. وتنتهي فترة التباعد بين البلدين ، ويدل ذلك على الرغبة النامية في التعاون عند حكومات الشعوب العربية.

يبدو أن (ابن سعود) أراد أن ينسحب من الوحدة العربية بعد البدء فيها، ولكن الفكرة كانت قد تطورت ولن تتوقف [1]. ودخلت الفكرة في قلوب كل الشعوب العربية بسبب العمليات الصهيونية في (فلسطين) البلد العربي المسلم. وسيطرت فترة من الهدوء قبل تنبه العالم إلى خطر اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتمَّ إندلاعها فعلاً مما جعل كل المسائل في الظل. وحققت (بريطانيا) في (فلسطين) صلحاً بين اليهود والعرب خلال مدة الحرب.

يقدم السياسي البريطاني (أنتوني إيدن) الطُموح العربي إلى الوحدة للمناقشة في مجلس العموم بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٤٣م. (فبريطانيا) في حاجة ماسة إلى عطف أو على الأقل حياد الشعوب العربية. ويشرح (إيدن) أن الإعلان الرسمي الصادر عن الحكومة البريطانية يتعاطف مع الطموح العربي إلى الوحدة. وفي العام نفسه يُقدم في (القاهرة) احتمال اتحاد الدول العربية للمناقشة ، تحت رئاسة (النحاس باشا)، رئيس الوزراء المصري حينذاك، ويدعمه (نوري السعيد)، رئيس الوزراء العراقي. ويتم التخطيط لمؤتمر عربي كبير. وتكرر (بريطانيا) عطفها ودعمها للوحدة العربية. ينعقد المؤتمر التمهيدي لتأسيس جامعة الدول العربية تحت رئاسة (النحاس باشا)، رئيس الوزراء المصري، في (الإسكندرية) خلال خريف عام ١٩٤٤م. ويجتمع المؤتمر العربي العام بتاريخ ٢٢ مارس عام ١٩٤٥م ، وتشارك فيه ست دول عربية ، ولم تحضر المؤتمر (اليمن) فقط. وضع هذا المؤتمر ميثاق جامعة الدول العربية الذي وقعه الحاضرون.

يبدو أن (مصر)، وممثلها (النحاس باشا)، قامت بالمبادرة بإيحاء من الملك (ابن سعود) في المرحلة الأخيرة. كيف يمكننا أن نشرح ذلك؟ من المحتمل أن يرجع هذا الأمر جزئياً إلى التدخل البريطاني المتزايد ، ورغبة الملك عبدالعزيز في تشكيل الجامعة العربية لمواجهة ذلك،

(١) لم يتوقف الملك عبد العزيز على الإطلاق في دعمه لمسألة الوحدة العربية الصحيحة، القائمة على مصالح العرب جميعاً، وليس على المصالح الضيقة، وتؤيد الأحداث التي تلت تأسيس جامعة الدول العربية، تلك السياسة المتواصلة التي انتهجها الملك عبدالعزيز تجاه دعم القضايا العربية والإسلامية.

ورأت (بريطانيا) في الجامعة العربية سبيلاً لكسب التعاطف العربي خلال السنوات الأخيرة، وهو تعاطف لا يستغنى عنه. بالإضافة إلى ذلك توقعت (بريطانيا) تقليل النفوذ اليهودي في (فلسطين) الذي لم تستطع أن تتحكم فيه بمرور الأيام. وكان (ابن سعود) رجلاً مستقلاً لا يسمح أن يُستغل لصالح السياسة البريطانية.

وبعد تأسيس الجامعة العربية، وعجز (بريطانيا) عن المحافظة على قوة انتدابها في (فلسطين)، لم يكن من الممكن تفادي حرب بين اليهود والدول المنتسبة إلى جامعة الدول العربية. وتنتهي الحرب بهزيمة كاملة للعرب. فلم تكن الجامعة قد حققت الوحدة بعد، والدول المنتسبة إليها كانت في المرحلة الأولى لنشوئها. ولم تتمكن من تشكيل قيادة مركزية وإبعاد الخلاف والشك بين الدول العربية. فانهزمت جيوش الجامعة في الحرب الفلسطينية بشكل مذل. إن هذه الهزيمة قد تعني سقوط الجامعة التي فشلت، ولكنها قد تعني أيضاً إعادة النظر. وكانت تلك العملية هي الأولى التي قامت الجامعة بها من غير إعداد ، وبلا خبرة ، وقد أدت إلى هزيمة كاملة أصابت الكبرياء العربي بجرح عميق ، لكنه غير قاتل.

أثارت تلك الأحداث أحد القادة الفلسطينيين، (موسى العلمي)، مؤلف كتاب « مثال فلسطين المنذر». وكان لهذا الكتاب فعالية، أيقظت الأمة العربية كلها وجعلتها تتقدم.

خاب أمل (ابن سعود) في إنجاز حلمه الخاص بالوحدة العربية وأعماله المعادية لليهود. وبدا أنه لم يضع في حسابه وزناً كافياً لعلاقاته التي تربطه مع القوات الغربية. بجانب الارتباط (ببريطانيا) نما ارتباط آخر، أقوى من الأول، وهو الارتباط (بأمريكا)، الذي بحثه (ابن سعود) شخصياً. بدت هذه العلاقة مفيدة ونافعة له ولشعبه ، وفعلاً فتحت هذه العلاقة مجالات جديدة غير متوقعة (للمملكة العربية السعودية). ولكن هل كان يدرك أخطار العلاقة أيضاً بوضوح؟ وهل اتخذت تدابير من الجانبين، لحماية شعبه ضد تلك الأخطار؟ يجب أن ننتظر ما يحدث مستقبلاً. وخلال الحرب ضد اليهود اختبر (ابن سعود) قوة ارتباطه بالاقتصاد الأمريكي. ومنعه هذا الواقع من التعبير عن رأيه ، أو المشاركة بالأعمال التي أثرت

في إنهاء الحرب، أكثر من جهود الجيوش العربية المشتركة. فلو قطع (ابن سعود) الصلة الذهبية التي ربطته بالاستثمار الأمريكي للزيت، لإلزام أمريكا بالوفاء بما وعده الرئيس (روزفلت)، ولعرض القضية التي قاتل العرب من أجلها، على المسرح العالمي بصورة حاسمة. فلو قام (ابن سعود) بالعمل ونطق بالكلمة المناسبة للفت أنظار العالم، وأجبر الحكومة الأمريكية على الرد [١].

تطلع رؤساء جامعة الدول العربية إلى الرجل الذي مهد الطريق لاتحاد الدول العربية بشكل مبدع . وأنار لهم الطريق في الأراضي التي عرفها : (الجزيرة العربية)، ولكن عندما ترك (نحاس باشا) في (مصر) و(نوري السعيد) في (العراق)، تحت تشجيع بريطاني ، تلك الأراضي المعلومة ، فلم يذهب (ابن سعود) معهما . وتابع المراقبان ابنه الثاني الأمير (فيصل) ، وسكرتيره للشؤون الخارجية، الشيخ (يوسف ياسين) ، المفاوضات ، ويتعاونان في تنظيم وتأسيس الجامعة ، ولكن لم يقُدها (ابن سعود) ، ولم يتحمل المسؤولية عنها كما تطلع الكثيرون إليه في الخارج [٢].

---

(١) رؤية المؤلف هنا غير صحيحة، لأن الارتباط مع (أمريكا) لم يكن على المستوى السياسي، وإنما مع شركات خاصة. علاوة على أن الزيت في ذلك الوقت لم يصل إلى حد حجم الاستخدام السياسي. وهذا ما فعلته (المملكة) في عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، عندما استخدمته أثناء الحرب مع إسرائيل. وتجاهل المؤلف مواقف الملك عبدالعزيز الثابتة تجاه القضية الفلسطينية التي استأثرت بمعظم سياسته الخارجية وحظيت بالأولوية حتى على حساب مصالح المملكة الداخلية والخارجية.

(٢) أسهم الملك (عبدالعزيز) في تأسيس جامعة الدول العربية، وكانت (المملكة) من الدول المؤسسة، وكان للملك (عبدالعزيز) بعض الملحوظات على مسودة (بروتوكول الجامعة)، ووظائفها حيث حرص عل أن تقوم الجامعة بدورها الفاعل في تأييد واستقلال الدول العربية، وجمع كلمة العرب، وتم الأخذ بها. والمسؤولية التي يشير إليها المؤلف هنا تحملها الملك عبدالعزيز حيث دعم تأسيس الجامعة ودعم قضايا استقلال الدول العربية واستضاف زعماء الاستقلال وقدم لهم كافة أنواع العون.

١٠- بلد الدين والزيت

بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية ازدادت مشاغل (ابن سعود)، وتوقف سيل الحجاج، وبالتالي توقف المصدر الرئيس لدخل حكومته. وبالإضافة إلى ذلك عرقلت عمليات الغواصات الألمانية شحن السفن إلى حد كبير. فكان (البحر الأحمر) منطقة خطرة طالما لم تستسلم (إيطاليا) في (الحبشة). فتفادت السفن ميناء (جدة)، ولم يُعد هناك عائد اقتصادي. وتوقف استيراد المأكولات تقريباً، ولسوء الحظ فشل الموسم الزراعي، الذي يُدّر غلالاً قليلة على أي حال، (بشبه الجزيرة) كلها ، نتيجة لفترة طويلة من القحط والجفاف. وواجهت (الجزيرة) الجوع . وواصلت (بريطانيا) الدعم في المناطق التي تتحمل مسؤوليتها مباشرة ، مثل (عدن) و(حضرموت). بالإضافة إلى ذلك دعمت (بريطانيا) مملكة (ابن سعود)، ولم يكن هذا الدعم بسبب قضية العطف، بل كان قضية سياسة. فهمت الحكومة البريطانية أن أفضل طريق لكسب عطف العالم الإسلامي أو المحافظة عليه، هو العناية باستمرار الحج إلى البلد المقدس. لذلك كان من الضروري مواصلة توريد الأرز والحبوب ، حتى لو لم تتمكن حكومة (ابن سعود) من دفع ثمنه، وبالإضافة إلى ذلك زودت (المملكة) بالقروض المالية اللازمة لسداد نفقات الشرطة والجيش والموظفين للمحافظة على الأمن والاستقرار.

رست زوارق دورية على فترات منتظمة على رصيف ميناء (جدة) وعلى متنها شحنات من الريالات السعودية المضروبة حديثاً، وصناديق الليرات الذهبية، العملة القياسية للبلد. لم يكن ذلك هو العامل الأهم، فقد يستطيع زورق دوري صغير نقل الذهب والفضة من (مصر)، ولكن كان الأمر الصعب حينذاك هو الحصول على باخرة كبيرة لنقل الدقيق من (كندا) والأرز، نعم من أين؟ لا بد من توفير الأرز لسكان البلد الحرام وللحجاج الذين نجحوا في الوصول إليه. سعت (بريطانيا) لتوفير الأرز في (مكة) و (المدينة)، ولم يجع أحد أثناء الحرب العالمية كلها ، ولم ترتفع تكاليف الحياة إلى مستويات رهيبة. كذلك ساعدت (بريطانيا)، التي

كانت هي نفسها تواجه (ابن سعود)[1]. ووقف هذا العربي الكبير إلى جانب (ونستون تشرشل) الذي أعجب به باقتناع، من البداية المظلمة للحرب إلى نهايتها المجيدة. لم تكن ثمة فترة أخرى، وقف خلالها (ابن سعود) خلف القضية البريطانية بمزيد من الاقتناع وبصوته الجهوري. كان بقاء (ابن سعود) حليفاً للبريطانيين خلال تلك السنوات أمراً في صالح (بريطانيا)، التي استفادت من صوت (ابن سعود) المنادي في الصحراء بحق (بريطانيا) في بيئته التي كانت تقف أولاً إلى جانب (ألمانيا)[2]. وأخذت (أمريكا) كذلك جزءاً من المسؤوليات البريطانية في (الجزيرة العربية) عندما تم انضمامها إلى صف الحلفاء. انتقلت (المملكة العربية السعودية) إلى اهتمام بلد أكبر وأغنى من (بريطانيا). (فأمريكا) كانت بلد سيارات (فورد) و (شيفروليت) و (دودج)، السيارات الوحيدة التي تتحمل خشونة الدروب الصحراوية ، بناء على قوة محركاتها. وارتفعت قيمة المستندات الأمريكية خلال السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية، بقدر ما ازداد الدعم الأمريكي من شعب يبني أقوى وألمع وأسرع السيارات، ويستطيع أن يحظى بالتقدير والإعجاب في البلدان الشرقية. وتوقعت (المملكة العربية السعودية) من (أمريكا) أكثر مما توقعته من (بريطانيا) البلد المنهك الفقير نتيجة للحرب.

إن (ابن سعود) لم يكن يهتم بالمال أبداً، علم ألا غنى عن المال، خلال سنوات الفقر في طفولته (بالكويت). وعند كل لحظات عدم التوفيق التي عاشها والده ، والتي شارك فيها (ابن سعود)، تعلم أن النقص في المال ليس السبب، وأن النجاح في أول الأمر يعتمد على بركة الله،

---

(١) لابد من الإشارة هنا إلى أن الملك عبدالعزيز نجح نجاحاً باهراً في تجاوز أزمة الحرب العالمية الثانية من خلال طلب مساعدة بريطانيا وغيرها ، والاقتراض من أجل تيسير الحج خدمة للمسلمين ، فوصلت المؤن باستمرار إلى موانئ الحجاز دون انقطاع واستمرت السفن تنقل الحجاج إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة رغم الظروف الدولية .

(٢) بالغ المؤلف في وصف موقف الملك (عبدالعزيز) من (بريطانيا)، ويبدو أن سياسة الحياد التي اتخذها الملك (عبدالعزيز) أثناء الحرب كانت عاملاً مهماً للحلفاء الذين لم يضطروا للانشغال بمنطقة (الجزيرة العربية). ويأتي الدعم الذي تلقته (المملكة) من (بريطانيا) و(الولايات المتحدة) نتيجة لسياسة الملك (عبدالعزيز) الذكية ، ولأهمية موقع (المملكة) الإستراتيجي. ولم تكن (المملكة) هي الدولة الوحيدة التي تلقت ذلك الدعم ، بل هناك عدد من الدول في أنحاء العالم تلقوا مثل ذلك الدعم .

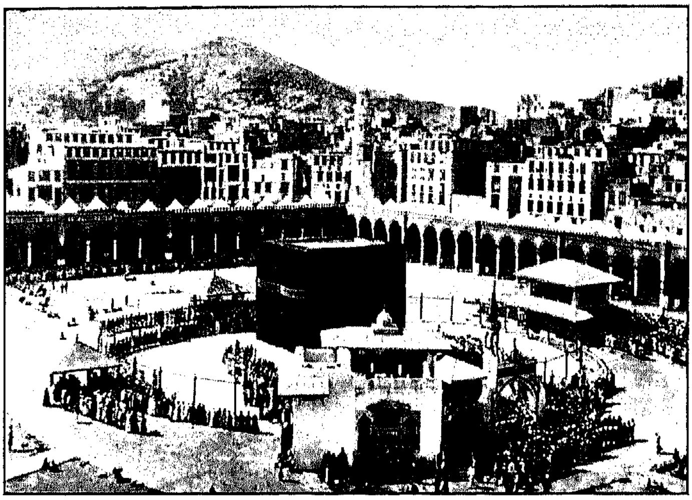
وبعد ذلك على المهارة والمثابرة الشخصية. كان المال وسيلة مساعدة ثانوية. فإذا حصل على المال صرفه بلا هموم للمستقبل. والفقراء والضيوف والأصدقاء أسهموا في حلول البركة المالية التي قدمها الله. وكان كرمه جزءاً من إيمانه. ملك الشجاعة ليعيش عيشة كريمة ، عندما قدّم (الله) له النعمة، وانسحب إلى الاقتصاد البدوي في كل شيء، عندما قلت الثروة المالية. ولمّا بلغت (المملكة) حجمها الحالي اتضحت ضرورة تحويل المجتمع البدوي إلى مجتمع عصري. واحتاج (ابن سعود) إلى المال لبلده، إلى مصدر منتظم من المال. ولا بد من توفير المال من الخارج، لأن بلده كان فقيراً، وغير خصب إلى حدٍ أنه لا يستطيع أن ينتج قدر متطلباته للطعام. إن دخل بلده الوحيد كان من المدن المقدسة ، حيث أمر الله المؤمنين بالحج إليها. فكان الحج أهم مصدر مالي لبلده، وينبغي تحديث الأماكن المقدسة، بناء على ذلك المصدر. لذلك أعطى تنظيم الحج انتباهاً خاصاً بعد أن ضم الأراضي المقدسة. وكان ذلك من ضمن التزاماته الدينية، وسوف تشكره وتثق به الشعوب الإسلامية على ذلك. وسوف تزداد أعداد الحجاج، وسوف تكون الزيادة في الرسوم التي يدفعها الحجاج مقبولة في ضوء تحسن خدمات الحج. ولقد ارتكب خطأ من هذه الناحية، بالإضافة إلى عوامل دينية وسياسية دولية عديدة أثرت في الحج، وهي عوامل لا علاقة لها ببلد الإسلام المقدس. خلال السنوات الأولى لحكمه على الأراضي المقدسة ازدادت أعداد الحجاج بصورة كبيرة عن ذي قبل، وازدادت المبالغ المتحصلة، ثم انخفضت أعداد الحجاج ، ولم تنجح الدعايات في وقف الانخفاض. رأى (ابن سعود) أن الرسوم قد ارتفعت . واعتقد أن ذلك الارتفاع نتيجة لما يقدم للحجاج من الأمن والاستقرار ، وتهيئة الظروف الصحية الحسنة إلى حد كبير. وللأسف لم يلحظ الإنسان غير الشاكر المحاسن والإيجابيات ، بل لحظ أكثر المساوئ والسلبيات التي يواجهها. ألزمته شكوى الحجاج وسكان الأراضي المقدسة ، الذين لم يسمح لهم باستغلال الحجاج، التفكير في مصادر مالية أخرى لا تعارضها الدول في الخارج.

وكثيراً ما عالج الملك مسائل مالية بالاستعانة ببعض الحجاج الأثرياء، مثل الحجاج القادمين من (جاوة) والجزر المحيطة بها. يقال : إن الهولنديين كذلك أثرياء، ولا بد من ذلك؛ لأنهم

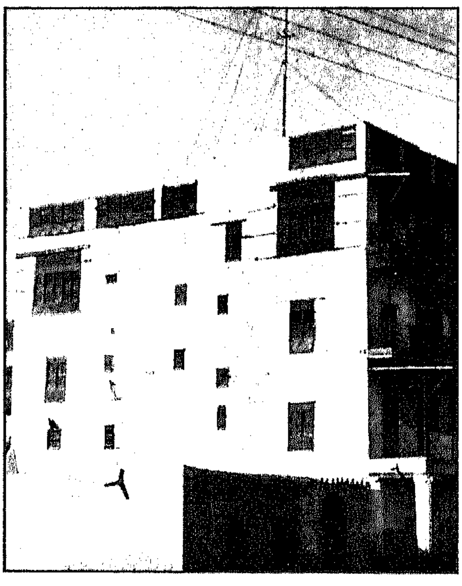
ذوو خبرة في مجال المال ، وهم شعب صغير بلا قوة ولا يشكل خطراً. وعندما رأى (ابن سعود) ضرورة تأسيس بنك أعطى لبنك هولندي حق العمل في مملكته.

وحينما فكر في البحث عن مصادر مالية لبلاده طلب من الحكومة الهولندية إرسال خبراء للقيام بالمسح عن الموارد الطبيعية، وكان وجود تلك الموارد واقعاً لا شك فيه. ويعرف كل عربي مثقف مما ورد في الكتب القديمة، وحتى في الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين أن (الجزيرة العربية) بلد الذهب والمر واللبان. وينجح العالم الغربي فعلاً في الكشف عن مناجم الذهب القديمة ويُنشئ أخرى حديثة. ربما وجدت كذلك معادن أخرى من تلك التي أصبحت مهمة في العصر الحديث. وكلفت الحكومة الهولندية خبراءها في هذا المجال بالاستجابة للطلب، فوضعوا خطة علمية ومدروسة لبحث جيولوجي نظامي غطى (المملكة العربية السعودية) كلها، وسوف تصبح تلك الخطة، عملاً متصلاً طويل المدى يكلف المال الكثير، ولكن أكد الخبراء تغطيته لكل (المملكة). ولم يُهمل المخططون الكفاءات الوطنية كذلك، وإضافة إلى ذلك اقترحوا تنفيذ هذا العمل الكبير باستخدام طلابهم خلال الوقت المناسب تحت إشرافهم. وقبل البدء في العمل كان من الضروري وضع مبلغ في البنك الهولندي في (جدة) لتجنب أي مخاطر مالية بالنسبة إلى هؤلاء الجيولوجيين الهولنديين. وبمساعدة مترجمينا تمت ترجمة التقرير إلى اللغة العربية. قرئ التقرير بانتباه في دوائر الحكومة السعودية، ولكن بعد قراءة الفصل المالي، وما يوحي به من عدم الثقة بالوضع المالي (للمملكة)، شكرت (المملكة) الحكومة الهولندية على تقديم التقرير المتخصص، واتجهت الحكومة السعودية إلى بعض البلدان الصغيرة الأخرى التي وثقت - على خلاف (هولندا) - بالوضع المالي (للمملكة)، لذلك كانت الفرصة أمامها طيبة لتنفيذ المسح الجيولوجي، لو لم يلتق (ابن سعود) بأمريكيين غربيين في غضون ذلك.

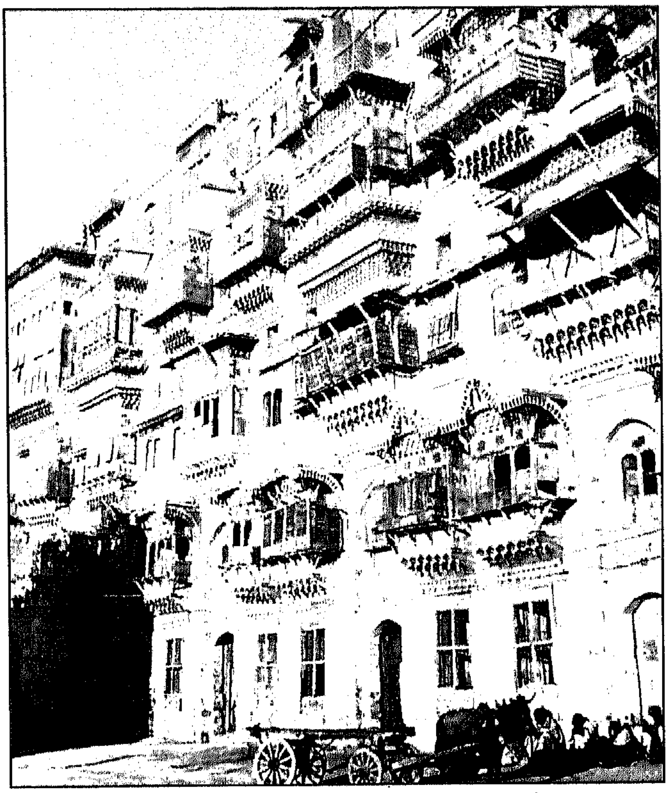
كان هذان الأمريكيان (تشارلز كرين)، المليونير الكبير، ومساعده للشرق الأوسط، (كارل تويتشل)، وكان السيد (كرين) « هارون الرشيد » في العصر الحديث، لم يبحث عن الامتيازات ، ولم يرغب في أي فوائد مالية في البلدان العربية. أراد أن يستعمل جزءاً من ثروته



٢٣- المسجد الحرام في (مكة). منظر على الميدان الكبير، وفي وسطه الكعبة - بيت الله.



٢٤- المبنى القديم للقنصلية الهولندية في (جدة).



٢٥- منظر لأحد الشوارع في جدة، جزء من العمارة العربية الجميلة القديمة التي أخذت تتوارى عن الأنظار.

لصالح شعوب (الشرق الأوسط). وحاول أن يقابل شخصياً رؤساء البلدان العربية خلال رحلاته الكثيرة ، واهتم بمشكلات الدول العربية وأزمتها اهتماماً عميقاً. تعود السيد (كرين) على زيارة صديقه المكرم في مدينة (لايدن) ببلدنا، بروفسور دكتور (سنوك هرخرونية)، المستشرق العالمي المشهور بعد كل رحلة من رحلاته إلى العالم العربي، عند عودته إلى (أمريكا). قدم استفساراته خلال سفره وطلب توصية البروفسور. وبعد تلك الاستشارة سافر إلى وطنه ، حيث أخبر أصدقاءه بانطباعاته عن البلدان الإسلامية. وموّل (كرين) في أول الأمر أنواعاً مختلفة من رعاية الشباب ، ودفع تكلفة تربية لأطفال عرب نبلاء، بصفة خاصة سوريين، ودعم أعمالاً علمية. بمساعدة (كارل تويتشل) ، وبدأ بتنفيذ خطة لتطوير عام في (اليمن)، وشرع في إنشاء الطرق والجسور وتحسين الزراعة والري. وأدى سوء الثقة في هذا البلد المتأخر جداً ، وفساد إدارته ، والنقص في الخبرة من قبل الأمريكيين، إلى الفشل الكامل لهذه الخطط المفيدة. وكان (كارل تويتشل) - الذي تولى هذه الخطط - رجلاً عجيباً ذا خيال وعزيمة. وكان واحداً من تلك الجماعات الصغيرة من الرجال المولودين من بيئات غربية مختلفة، ويأسرهم غموض البلاد العربية القديمة ، وبالتالي يعطون حياتهم لها. لما توقفت خطط الدعم في (اليمن)، قرر (تويتشل) بموافقة (كرين) أن ينظر إلى البلد المجاور، (المملكة العربية السعودية)، حيث كانت الأوضاع السياسية ، وتماسك الحكومة أفضل بكثير من أوضاع (اليمن) في عهد الإمام (يحيى). وارتاح (تويتشل) (للمملكة) وملكها (ابن سعود)، وقرر أن يبذل كل جهوده لصالح هذا البلد ، ووافق السيد (كرين) على ذلك.

أراد (تويتشل) التعاون مع الحكومة السعودية، وعلى أساس تجاري. فبادر إلى البحث عن الذهب دون خطة مدروسة وبدون خبرة، معتمداً على الوعد بأنه يستحق الفرصة الأولى لتعدين الذهب إذا اكتشف شيئاً. يبدو أن (تويتشل) كان مؤمناً بالكتاب المقدس ومصدقاً به. فلو أمر الملك (سليمان) بإحضار الذهب من (الجزيرة العربية)-كما ورد في الكتاب المقدس- فلا بد من وجود بقايا لذلك الذهب، ولا شك أن البدو الذين يعرفون الصحراء قد رأوا مناجم (سليمان)، دون أن يدركوا ما يرون. ولا يوجد شيء أسهل من أن يشرح لشيوخ

البدو ما يبحث عنه، ويعد الأشخاص الذين يقودونه إلى تلك المناجم بهدايا ، فالقدماء كسروا المعادن من الصخور وسحقوا الحجر باستخدام مطاحن يدوية.

تجمعت البيانات بسرعة ولم يبق على (تويتشل) سوى زيارة المواقع المحددة لأخذ عينات من الصخور ، وإرسالها إلى المختبرات في (أمريكا). وأخذ عيناته - أيضاً - من المواقع التي ارتادها من قبل الباحثون القدماء عن الذهب ، وهي أكواخهم ، حيث طحنوا خاماته، وغسلوا غبار الذهب هناك بالماء وتدفق الماء القذر. ونتيجة لتلك العملية ارتفع سطح قرى غسّالي الذهب تدريجياً، وكان من الضروري رفع حيطان المساكن. ويبدو أنه وجد في تلك البقايا من المواد الخام التي غسلها القدماء كثيراً من الذهب. وبموجب التقارير الواردة، ونظراً إلى إمكانية توفير الماء للآلات الحديثة واعتبارات أخرى، تمكن (تويتشل) من اختيار أحسن موقع لمنجمه لاستخراج الذهب. وهكذا تم إنشاء (مهد الذهب)، المؤسسة الغربية الحديثة الأولى في مملكة (ابن سعود). وبالمقارنة مع المؤسسة الثانية - لاستخراج الزيت - فكان استخراج الذهب بداية متواضعة جداً، ولكنها مهمة جداً لتاريخ (المملكة). دخل البلد، الذي كان منعزلاً منذ زمن، عصراً جديداً، عصر التقنية الغربية والشركات الضخمة. إن (تويتشل) ومساعديه هم الرجال الذين يفهمون فرصهم ومسؤولياتهم، و(ابن سعود) هو العربي ذو الإدراك والشجاعة المطلوبة للبدء بتلك التجربة الحضارية في قلب البلد السعودي، على مسافة أقل من ١٠٠ كيلومتر جنوباً من (المدينة المنورة).

ونظراً للأهمية الكبيرة لتلك التجربة تكلمنا بتفصيل عن التاريخ السابق للفترة الجديدة. ومن المؤسف جداً أن (هولندا) كان من الممكن أن تقوم بتلك الأعمال، لو فكرت بقليل من التعمق والعلم، ولكن بكثير من التخيل والعمل، والتركيز على المزيد من البراعة والشجاعة والمجازفة في المعاملات المالية. ولم تكن تلك المخاطرة كبيرة إذا نظرنا إلى دور (ابن سعود) فيها. فيجب التعامل مع الإنسان بعد معرفة قدره، ويجب أن يكون المتعامل في مستوى المتعامل معه .

فقد تعامل (ابن سعود) مع (بريطانيا) في الجوانب السياسية ، وهي التي أوحت بها صلاته بالبريطانيين الذين أحتك بهم، أما تعامله مع (أمريكا)، فقد أخذ جانب التنمية الاقتصادية، الذي استشفه من الرعايا الأمريكيين الذين عايشهم في بلاده، فكان هؤلاء الأمريكيون باحثين وفنيين وخبراء مرشدين. فبعد استغلال (ابن سعود) لمناجم الذهب باستخراجه، عمل على دراسة الإمكانيات في مجال الزراعة والري، وبعد أن رأى (ابن سعود) حرص الأمريكيين على هذه الجوانب أوكل إليهم أمر التنقيب عن البترول واستخراجه في مناطق (شرقي المملكة العربية السعودية). وقد استطاعت الشركات الأمريكية التغلب على الصعوبات التي واجهتها في بدء أعمالها، مما مكنها من اكتشاف كميات ضخمة من النفط في سواحل الخليج العربي قرب الظهران وشماله، الأمر الذي جعل (المملكة العربية السعودية) تتيح للشركات الأمريكية فرصاً فاقت تصور تلك الشركات.

لقد آثر (ابن سعود) أن يتعامل مع الشركات الأمريكية دون البريطانية؛ لأن الشركات البريطانية لها مناطق أخرى تزخر بالزيت، مثل (إيران) و(العراق) و(البحرين)، (فبريطانيا) منهمكة في العمل في تلك المناطق. أما (أمريكا) فحديثة الدخول في هذه المجالات، ولذلك تسعى إلى العثور على مناطق جديدة غنية بالزيت، سهلة الاستخراج، فوجدت بغيتها في أجزاء من (المملكة العربية السعودية) التي تمكنها من استخراج الزيت بكميات كبيرة، وفي أزمنة قياسية. فكان اختيار (ابن سعود) لها، وإسناد هذه المهمة لها؛ لما لها من مقدرة مالية ، وإمكانات علمية ، تمكنها من ذلك، فأصبح لدى (ابن سعود) انطباع طيب عن الأمريكيين، عندما شاهد سرعتهم وبراعتهم في هذه المجالات؛ بالإضافة إلى أن همومه المالية جعلته يهتم بهذا المصدر المالي الذي سوف يؤتي ثماره عاجلاً. ومن جانب آخر فقد كانت (أمريكا) في وضع أفضل من (بريطانيا)، فهي بلد غير معروف، وليس لأحد ذكريات مرة معها في هذا الجزء من العالم ، وبالتالي فهي لا تحتاج أن تكافح ضد أحكام وتقاليد موروثة. ولذلك فقد انتهزت (أمريكا) الفرصة المواتية ، ونمت استثماراتها في هذا البلد الجديد بسرعة فائقة، يحدوها حسن النية والأمل الكبير في النجاح في بلد وشعب لم تعرفه قبل ذلك إطلاقاً.

فالعنصر الأمريكي بادر إلى استثمار هذه الفرص التي لاحت في مجال الاقتصاد بتفاؤل وحيوية في هذا البلد الجديد عليهم، والشعب غير المكتشف في نظرهم. (فأمريكا) تختار ممثلين طيبين لإرسالهم إلى بلد (ابن سعود) ، وهيأت لها الظروف أن تختار من بعض المواطنين ذوي الأصول العربية أفراداً يتكلمون اللغة العربية أحسن من أي مستشرق غربي، لأنهم مهاجرون من (سوريا) و(لبنان) و(فلسطين). وكان أبرزهم الذين تخرجوا من المعاهد الأمريكية لدراسات (الشرق الأوسط)، ووجدوا من هناك الطريق ممهداً إلى العالم الجديد الذي كان معبراً لعودتهم إلى أوطان الجدود.

كان المندوب الأول من (أمريكا) إلى بلد (ابن سعود) هو ابن أحد المسيحيين، وكان يعمل في (سوريا). فتعلم اللغة العربية من أصدقاء اللعب في الطفولة ، وعاد إلى بلد طفولته ليخدم العمل التنصيري أيضاً، وأثناء الحربين العالميتين أصبح (وليام ألفريد إدي) عقيداً بالأسطول البحري ، واختارته الحكومة الأمريكية مستشاراً للمهمة المتطورة بسرعة في (المملكة العربية السعودية). والتقى العقيد (إدي) في (جدة) ببعض أصدقاء طفولته في (سوريا) الذين أصبحوا بدورهم مستشارين للملك. وأصبح العقيد (إدي) مركزاً للنبلاء السعوديين الذين يستمعون إلى ذلك المندوب القادم من الغرب الذي يجيد اللغة العربية ويثير في المستمعين إليه الدهشة والضحك برواياته الهزلية. فأصبح صديقاً (لابن سعود) ، وبقي كذلك حتى بعد استقالته من الخدمة الدبلوماسية ، وصار مستشاراً سياسياً لمديري (شركة الزيت السعودية الأمريكية).

وقد ساعد في تعزيز الثقة والصداقة بين الملك والأمريكيين أن العمليات الأمريكية الأولى كانت ناجحة إلى حد كبير. وكان التعاون ممكناً للثقة والصداقة المتبادلة بين المديرين الأمريكيين والملك، وبسبب إعجابهم بالملك البدوي. إن (ابن سعود) كان الإنسان المفتاح، ولذلك كانت هذه الصداقة قاعدة ثابتة للتجربة. وعندما أرادت (أمريكا) إنشاء المطارات أهدى الرئيس (روزفلت) طائرة إلى الملك (ابن سعود) ، اختارها الملك بنفسه هدية شخصية عند

مقابلتهما في (مصر). وكانت هذه الطائرة المهيأة حسب الذوق العربي بعد فترة قصيرة تجوب أجواء الصحاري قرب مدينة (الرياض) بطاقم يتناوب كل شهرين. ولكن العلماء قد نصحوا الملك بعدم استخدام هذه الطائرة، ولكن أبناءه وأقرباءه يستخدمونها كثيراً ، وأصبحت الوسيلة السريعة لنقل الموظفين المهمين، والضيوف، فهم لا يصلون إلى مقر الملك إلا بالطائرة الملكية. وتم إنشاء المطارات تحت إشراف شركات أمريكية ، وكان ذلك في فترة وجيزة، وكانوا يستخدمونها، ولا يجدون صعوبة في عبور طائراتهم الأجواء السعودية من (جدة) إلى (الظهران) عن طريق (الرياض). وكان لا بد أن تستقر إدارات الشركات الخاصة باستخراج الذهب والزيت في (جدة) ، حيث إنها مدينة الممثلين الأجانب.

قدّم الأمريكيون عدة مستحدثات فنية تبرز معجزات هذا التقدم الاقتصادي للعالم الغربي. ولذا كان يتم تزويد كل أمريكي يشتغل في (المملكة العربية السعودية) بمنزل ومكتب مكيف وخال من الذباب. وكانت عربات التكييف تسبق الجنود الأمريكيين إذا دخلوا الصحراء ، للقيام بدورة تدريبية للضباط السعوديين. وكانوا يجيئون أيضاً بأفلام وأجهزة عرض، تستخدم للدراسة من ناحية ، ومن ناحية أخرى تستخدم للترفيه . وكان الأمريكيون يتيحون لتلاميذهم العرب تناول السجائر خلال إلقاء المحاضرات والدروس، وكانوا يتناولون ذلك مجاناً؛ ليكون عادة تسود مجتمعهم. وما وصل إليه الأمريكان في زمن وجيز ، لم يتمكن البريطانيون وبقية الأوربيين من الوصول إليه إلا بعد زمن طويل، وتخطي عقبات جمة في سبيل ذلك. أما الأمريكان فقد وصلوا إلى ذلك سريعاً ، لأن نجاح (أمريكا) في الحرب العالمية اختصر لها الطريق، فوصلت إلى هذا الوضع المريح.

وكان استخراج الزيت السعودي من أقوى الأسباب التي مكنت القوات الأمريكية من تحقيق النصر على (اليابان). وكانت (أمريكا) حريصة وقتها أن تتزود بكامل حاجتها من الزيت

المستخرج من (المملكة العربية السعودية) بالقرب من الظهران[1].وعندما لم يستوعب معمل التكرير الصغير سيل الزيت الخام المتدفق بسرعة، لجؤوا إلى إنشاء أنبوب في قاع البحر لنقل الزيت الخام إلى المعمل (بالبحرين). وتم نقل الإيطاليين عن طريق الجو من (الحبشة)، لإنشاء مدينة نفطية، مزودة بكل مظاهر الحياة الأمريكية؛ ليقيم فيها الأمريكان. شريطة أن تزود بصالات الطعام وبالوجبات الملتزمة بالمعايير الأمريكية .

قريباً ينتقل الثقل الاقتصادي في مملكة (ابن سعود) من شاطئ البحر الأحمر (حيث يقع البلد المقدس للحج) إلى (شرقي المملكة)، حيث نشأت بسواحل الخليج أبراج التنقيب، ومعمل التكرير، والميناء البحري المسمى (الدمام) ، وشركة الزيت (بالظهران). فالآن تم إنشاء سكة الحديد الأولى (بالمملكة العربية السعودية) . دمرت سكة الحديد في الحجاز تحت قيادة العقيد (لورنس) التي كانت خاصة بنقل الحجاج من سوريا وفلسطين إلى المدينة، ولم تصلح بعد الحرب العالمية الأولى. وتربط سكة الحديد الجديدة (الرياض) (بالظهران) و(الدمام) عن طريق (الهفوف). وأنشأت شركة الزيت مطاراً بقرب مدينة الزيت لأحدث الطائرات، وبهذا فتحت (الجزيرة العربية) قلبها للخارج.

انتهت الهموم المالية (لابن سعود) بعد ارتباط إنتاج الزيت بالشركة الأمريكية. وانتهت همومه بالنسبة إلى النقصان في المال ، وبدأت مسؤوليته في الاستفادة من المال الكثير ، ويبدو أن الأخير أصعب من الأول. تولت الدولة السعودية، مجسدة في الشخص الذي تولى مسؤولية نشر الإسلام الصحيح وخدمته بعد ضم (الحجاز). وهذا ما تطلع إليه وبكل إيجابية سكان المنطقة وكافة المسلمين. خيبت هذه التطلعات آمالنا (الغربيين المهتمين)، حيث إننا تابعناها

(١) كان إنتاج الزيت أثناء الحرب العالمية الثانية ضعيفاً ، وتوقف في معظم تلك الفترة ، نتيجة لقيام الطائرات الإيطالية بضرب مواقع إنتاج الزيت شرق (المملكة) أثناء الحرب ، ويبدو أن ربط المؤلف بين انتصار الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية واستخراج الزيت من المملكة هو شيء مبالغ فيه ، لأن الإنتاج لم يكن بحجم مهم في ذلك الوقت من جهة ، ووجود عوامل مهمة أخرى أهملها المؤلف من جهة أخرى .

بتوقعات. فالسعودي الملتزم لم ينجح في تحويل اعتقاده، بحيث يكون مقبولاً للناس خارج صحاري (الجزيرة العربية). ولم يفقد فخره وثقته بنفسه، ولكنه فقد التوقعات المستقبلية بالنسبة إلى نهضة إسلامية نقية [1].

على الجانب الآخر للمملكة واجه (ابن سعود) الثقافة الأمريكية. وظهر له موقفهم بالنسبة إلى الحياة، موقفاً لا يعترف (بالله) العظيم، وكان موقفاً غير جدير بالإنسان العاقل. ومن خلال محادثاتنا مع رجال الملك الذين التقوا بالقائمين على أمر صناعة الزيت. بدا لنا أنهم لم يكونوا مرتاحي الضمير بالنسبة إلى السؤال الذي يطرح نفسه، كيف يستطيعون استيعاب هذه الظاهرة الغربية. فهم وشعبهم عاشوا في سبيل الله ، ولكنهم فقراء وبدون قوة. وهؤلاء الناس - الذين لم يهتموا (بالله) ولا بأوامره - كانوا أغنياء ، وبدوا في الظاهر أنهم سعداء؟ ولم يجدوا إجابة مرضية عن هذا السؤال ، ويتردد السؤال بصور متعددة ، ومن يهديهم الطريق الصحيح لتفكيرهم ، بدون أن يفقدوا إيمانهم؟[2].

في البداية كانت للملك وعلمائه إجابة واحدة فقط وهي الرفض الحاسم والتمنع التام. فبدا لهم أو ظنوا أنهم يستطيعون بهذه السياسة الامتناع عن التأثير الروحي في شعبهم. ويبدو أنهم لم يفكروا في دعوة الأمريكيين إلى الإيمان الصحيح الوحيد. فهل رأوا رجال الزيت بوصفهم حالات لا أمل في دخولهم في الإسلام؟ ولماذا منعهم (ابن سعود) إذاً عن التأدية العامة للدين الخاص بهم؟ رغم أن النصراني المؤمن أحسن بكثير من الملحد الحديث أو المادي؟ فبدت

---

(١) يبدو أن المؤلف كان يتوقع أن يحدث تغيير في عقيدة السعوديين بعد حدوث هذا التطورات ، وهذا غير صحيح؛ لأن العقيدة واحدة ، ولم تتأثر بأي تطور سواء كان سياسياً أو اجتماعياً . أما بالنسبة للتوقعات المستقبلية لنهضة إسلامية نقية فعلى عكس ما رآه المؤلف فقد قام الملك (عبدالعزيز) بجهود كبيرة في نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة بين المسلمين في أنحاء المعمورة ، ودعم التعليم الإسلامي والإرشاد وغير ذلك .

(٢) ليس صحيحاً أن هذا هو التساؤل الذي كان محيراً للناس في (المملكة) حسب رأي المؤلف . وإنما يبدو أن الذي كان على (المملكة) مواجهته هو كيفية استيعاب أساليب الحضارة مع المحافظة على مبادئ الدين وشرائعه . وهذا ما حققته (المملكة) في عهد الملك (عبدالعزيز)، وعهد بنيه من بعده .

المعادلة في القيمة الدينية بين الفريقين متأرجحة في نظر الآخرين. فكان الخوف ينتاب السعوديين من ناحية أن دينهم غير مقاوم للعالم الحديث [1]. ومن ناحية أخرى قلة الجدية والنقص في فهم الأمور غير المادية من جانب الأمريكيين. فالأمريكيون باعوا حقهم في أداء شعائرهم الدينية مقابل أرباح الزيت التي اعتبروها مقابلاً مجزياً في عدم ممارسة دينهم [2] لم يدرك الأمريكيون أنهم بنهجهم هذا يعززون رأي السعوديين فيهم. فبناءً على خبرتنا نعرف أنه لم يكن ضرورياً أن يتخلوا عن دينهم، (فابن سعود) من الممكن أن يقدرهم بشكل أكبر وتزداد ثقته بهم لو اشترطوا تأدية شعائرهم بحرية. لقد فقد الأمريكيون فرصة كبيرة لعلاقة قوية مبنية على الصداقة والاحترام المتبادل، بدلاً من علاقة تعتمد على عوائد الزيت فقط [3].

اهتم كبار الأمريكيين بموضوع تأثير أعمالهم في المجتمع ، ونتائجها وخطورة ذلك على أفراده، لذا أرادوا أن يتجنبوا لوم الأجيال القادمة من أنهم استخرجوا الثروات الطبيعية الضخمة من (المملكة العربية السعودية) ، وأعطوا قليلاً من المال بدلاً عنها ، بحيث يزداد ثراء العرب قليلاً. وشكلت شركة الزيت أهدافها لتطوير المجتمعات الحديثة. بالإضافة إلى أن الحكومة الأمريكية أرسلت بعثات مكونة من الخبراء الذين بحثوا إمكانيات تحسين الزراعة والري

(١) السعوديون لم يشعروا بهذا الشعور على الإطلاق ، بل يؤمنون بأن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ، ولقد بنى الملك عبدالعزيز الدولة السعودية على أسس حديثة مع الالتزام بمبادئ الدين ، واستمر ذلك إلى اليوم .

(٢) يناقش المؤلف مسألة عدم دعوة الأمريكيين إلى الإسلام ، وسبب قبول الأمريكيين العمل دون الموافقة على ممارسة شعائرهم . والحقيقة هي أن تعامل الحكومة السعودية مع وضع تواجد الشركات الأمريكية العاملة بها كان مميزاً ، بحيث إنه لم يؤثر في المجتمع السعودي سلباً ، بل على العكس من ذلك فقد انخرط السعوديون في أعمال الزيت دون التأثر بالتقاليد الأمريكية من جهة ، وتعرف العاملون الأمريكيون على جوانب المجتمع السعودي وتقاليده من جهة أخرى . وهذه الظاهرة تستحق الدراسة إذا ما قورنت بمجالات مماثلة في مناطق أخرى من العالم ، حيث كانت النتائج سلبية .

(٣) ليس ما رآه المؤلف هنا صحيحاً ، لأن الملك (عبدالعزيز) واستناداً إلى الأوامر الشرعية لم يسمح لمنسوبي شركة الزيت الأمريكية من ممارسة شعائرهم غير الإسلامية حتى وإن اشترطوا ، وكانت هناك محاولات ، وقام الملك (عبدالعزيز) بمنعها ونجح في ذلك

وشبكة الطرق والصحة العامة . وساعد كبار موظفي أرامكو (شركة الزيت العربية الأمريكية) في هذه الخطط ، وبالتالي كانت هناك بداية مفعمة بالأمل . وكان الانطباع السائد من أن الجزء الرئيس من المبادرة إلى تنفيذ تلك الخطط لم يكن هذه المرة لدى (ابن سعود) بل لدى الأمريكيين (١). فمن الناحية الفنية كانت نتائج التجارب والنشاطات مذهلة. وتدريجياً تتقلص الأوضاع القديمة ذات الإيمان المتشدد والموروثات المتمثلة في الشجاعة والبطولة، والفقر الذي كانت تعيشها ورومانتيكيتها الصحراوية، فتصبح (جدة) مدينة صحية. يجيء الماء الصالح إليها عن طريق أنبوب من (وادي فاطمة) من نصف المسافة إلى (مكة)، وذلك مجاناً لمصلحة الفقراء. فتستطيع مدينة (جدة) تعطيل مصانع المياه المكثفة بها غير المجدية، ولذا تم تدمير حائطها وإنشاء الطرق. فاختفى جمال مبانيها حيث انكشفت عاداتها القديمة لكل الناس الذين رأوها ، مع مساوئها من الناحية الصحية. فالفوائد لم تزد على المساوئ إلا بشرط واحد، وهو شرط لا تستطيع تقنية (أمريكا) الوفاء به ، وهو لا بد أن يساعد الشعب نفسه على حله وعلى رؤسائه قيادته لذلك ، وحثه عليه. لو لم يكن للعربي أساسٌ روحي لهذه المساعدة الفنية الأمريكية بدلاً من التزامه الديني الذي يجب أن يعود إليه ، فلن يصبح الوضع الجديد شيئاً خاصاً به أبداً ، ولن يصبح نباتاً بجذور قادرة على اختراق الأرض العربية الصلبة.

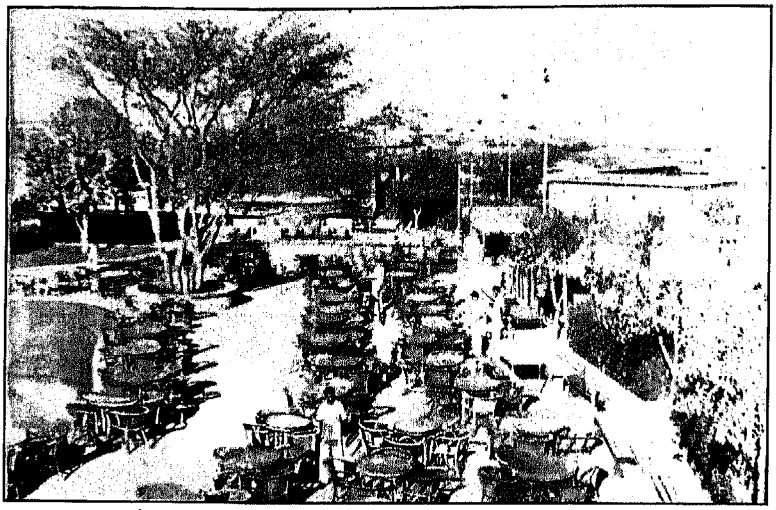
نتيجة للعلاقة الاقتصادية مع (أمريكا) سالت الأموال الكثيرة في بلد (ابن سعود) الفقير. وأصبح من أغنى بلدان العالم. اصطدمت الدولة السعودية الأولى (بمصر) عن طريق (مكة) التي كانت وما زالت مركز الإسلام العالمي. دفع (محمد علي) و(إبراهيم باشا) الدولة السعودية إلى تلك المنطقة بناء على قوة السلاح والقوة القاهرة. ولم يتأثر ضمير القوة الروحية التي كانت بسبب النهضة.

(١) ليس هذا الانطباع صحيحاً ، لأن الملك (عبدالعزيز) كان وراء تلك الجهود نتيجة لنظرته الثاقبة في الإفادة من الإمكانات والخبرات، ولاسيما أن بداية تلك الجهود في مجال تطوير الزراعة والري والطرق والشؤون الصحية لم تكن عن طريق شركة (أرامكو) ، وإنما عن طريق الاتصالات المباشرة بين الملك (عبدالعزيز) وخبراء من (الولايات المتحدة الأمريكية)، و(بريطانيا)، و(هولندا)، و(إيطاليا)، وغيرها، أمثال (كارل تويتشل) في مجال الزراعة ، و(كوركيل) و(لونجينيتو) في مجال الصحة ، و(تشيكو) في مجال الطيران .

واجهت الدولة السعودية الثالثة بقوتها الدينية السلفية المجتمع الإسلامي العالمي مرة أخرى. ولم يعارض هذا المجتمع بالقوة الظاهرة ، ولكن بقوات الامتصاص. ويبدو أن الخصم الخطير الآن هو الغرب الغني القادم من الشرق بأبراج التنقيب وسكة الحديد ومكننة الزراعة والري والتطورات الطبية، تخترق التقنية البلد كله وسوف تغيره رغماً عن الجميع [1].

---

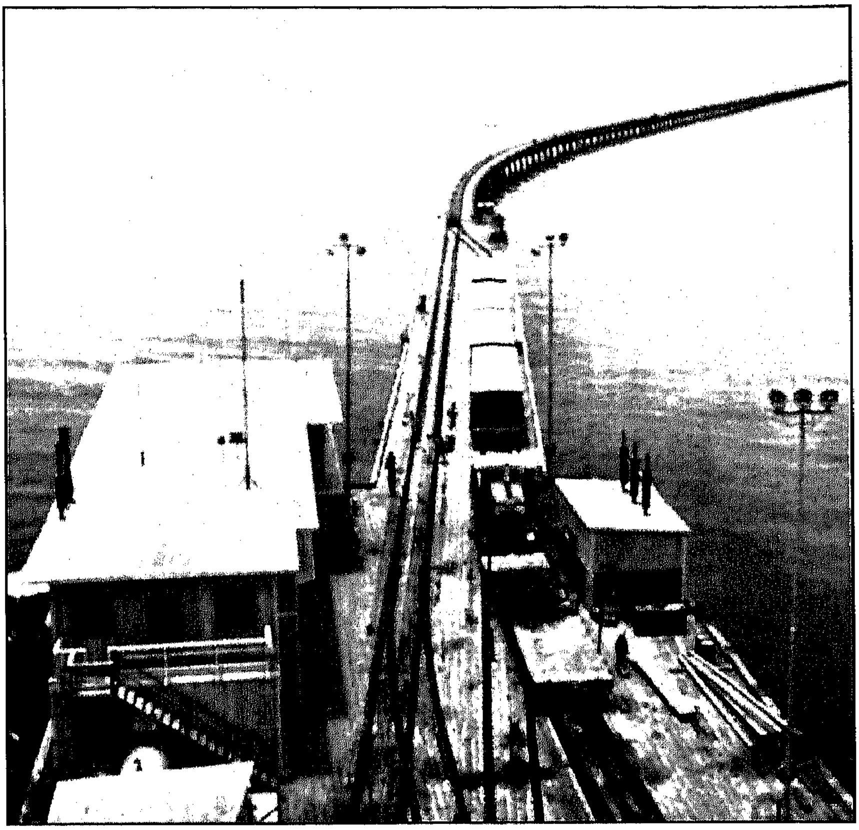
(١) يلحظ أن المؤلف ينظر إلى مسألة التأثير السلبي للزيت وسياسة التطوير التي كانت (المملكة) تشهدها بما في ذلك صناعة الزيت على المجتمع السعودي المتدين وتقاليده ، بينما نرى اليوم أن ذلك لم يكن صحيحاً ، حيث حافظت (المملكة) على التزامها بمبادئ الدين الإسلامي ، واستمرت في خدمة الإسلام والمسلمين ، رغم ما مرت به من تطور سريع في كافة مجالات الحياة ، وأصبحت من الدول المتقدمة .



٢٦- هكذا يعيش الأمريكي في (الظهران)، مدينة النفط الجديدة لأرامكو بالخليج العربي.



٢٧- (الظهران)، مدينة السكن، ذات شبكة المياه، تصبح الآن بسرعة مدينة الحدائق الجميلة.



٢٨- منظر رصيف (الدمام) الذي يبلغ طوله ١٢كم، وبداية سكة الحديد السعودية الممتدة إلى الرياض.

١١- اقتراب ابن سعود من نهاية حياته

قبل أن نختم قصة حياة (ابن سعود) نعود إلى بلده (المملكة العربية السعودية) للنظر إليها مرة أخيرة . فخلال شيخوخته أصبحت بلده كما أرادها قوية ودائمة. بلد يعبد (الله) فيه طبقاً لكلمته ولسنة (رسوله)، آخر الرسل وخاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم)، وتطبق فيه شعائر الإسلام الصحيح يومياً طوعاً من كل المؤمنين، إذ يجتمع الرجال خمس مرات في اليوم بالمساجد لأداء الصلوات، ومرة في الأسبوع لأداء صلاة الجمعة. وسوف يعطي الإخلاص في تأدية الالتزامات الدينية الخاصة بالحياة العامة والاجتماعية والشخصية قوة النمو لتشكيل مجتمع البدو والمزارعين المقيمين بالواحات والمدنيين على السواء. وسوف يقوي الدعاة ومعلمو الأطفال، هذا المجتمع من الداخل بموجب عملهم، وسوف يكونون المعلمين الذين يدفعون البدو أولي الخشونة إلى الالتزام بالإسلام، مدينين لدولة مبنية على الشرع الإسلامي.

وسوف يقدم من جديد الدليل على أن الإسلام هو القوة الوحيدة القادرة على بناء الدول وتثبيت الوحدة. فالرسول (صلى الله عليه وسلم) بنى الوحدة العربية الأولى بالإسلام، وكسر موانع تجمع القبائل ، ونتج عن ذلك دولة عالمية للإسلام! وبنى الإمام (محمد بن سعود) على هذا الأساس، بمشاركة (محمد بن عبدالوهاب)، الدولة السعودية الأولى في (جزيرة العرب). وبناء على القوة نفسها نجح (ابن سعود) في القيام بمهمة حياته، وهي إعادة بناء دولة موحدة في (الجزيرة العربية). وبدا أن تحقيق حلم إيمانه الأصلي كان ممكناً في بداية حياته العامة. وبدا أن الاعتقاد البسيط المبني على القرآن والسنة قادر على التغلب على كل شيء في أراضي (الجزيرة العربية) الصحراوية. كان الدعاة أدوات نافعة، وأصبحوا العمود الفقري الأخلاقي للجيش، وكونوا الجنود المتقدمين للإخوان ، الذين منحوا الولاء لإمامهم دون القبيلة ، حيث إنه سبقهم في ميدان الجهاد ، ورفع هدف حياتهم من الثأر والطموح إلى الغزو إلى الجهاد في سبيل الله.

بدأ الاعتقاد السلفي يعلم للأطفال على أيدي الدعاة في مخيمات البدو والواحات والقرى الصحراوية. وركز التعليم على معرفة القرآن وسنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكل

المبادئ المستمدة منها للعربي المقيم في وسط (الجزيرة العربية) حسب اجتهاد الشيخ (محمد ابن عبدالوهاب)، العالم المعترف به [1].

فعلاً تمّ تحقيق بلد موحد ومنظم ومستقر . وكان الدعاة، الأئمة الذين يرجع إليهم، كما كونوا أيضاً القوة الدافعة لهجر الإخوان الزراعية ، حيث تمّ تحويل البدو إلى مزارعين تابعين للالتزامات الدينية بأمر (ابن سعود). وكانت قوائم الأسماء لمراجعة الالتزام بالحضور إلى المسجد قاعدة التنظيم الإداري ، وبداية نظام حكم على مستوى أعلى وأكبر من وحدة القبيلة. وهكذا استفادت (نجد) المرتفعة في وسط (الجزيرة) والمناطق حولها من تهذيب الدين ونظامه وتربيته. ووجدت في الإسلام قوة، لا بد أن يعبر البدوي الذي أصبح قوياً وواعياً عن ذاته بسبب قبوله للإيمان بها. وينشط الشبان التابعون للدولة في النشاط الدعوي. وهذه القوة التي ولدّها الدعاة كان لا بد من استخدامها. فقاد (ابن سعود) هذه القوة الصحراوية غير المتهورة، هذا النبوغ الطبعي للبدو من (الجزيرة العربية) بصورة عبقرية.

تتميز الفترة الثانية من حياته ببعض الأمور التي تفوقت على السياسة العربية الداخلية. ويضطر أثناء هذه الفترة إلى المهمة المحزنة لمعارضة الحماس الزائد الذي لا يعترف بحدود جغرافية ، وكانت تهدئته ضرورية ، نظراً لاعتبارات دنيوية وسياسية منطقية.

كان العالم خارج (الجزيرة) يراقب الموقف متوتراً ، وتحول هذا التوتر إلى إعجاب ، لما رأى العالم أن رئيس البدو هذا كان أكثر من مجرد سياسي (للجزيرة العربية) ، وأكثر من متحمس للدين ولكل قضايا الإسلام. وكان يوجه الدولة توجيهاً دينياً ، واستخدم إيمان وحماس مؤيديه ، ولكنه ضبطهم في النهاية.

تفوق الإدراك الديني المتقدم (لابن سعود) ورأيه السياسي الخاص بالوضع العالمي على فهم تابعيه، نتيجة لذلك اضطربت علاقة (ابن سعود) بهم ، وضعفت ثقتهم به وعطفهم عليه

(١) اجتهاد الشيخ (محمد بن عبدالوهاب) مبني على اجتهاد أئمة المذاهب الأربعة ، والعلماء الأوائل ، وخاصة الإمام (أحمد بن حنبل)، و(ابن تيمية)، وتلامذتهم .

تدريجياً. وأخيراً يجد بعض رؤسائهم، أعداء له مما أثار حزنه الكبير، فأصبحوا ومؤيدوهم من أخطر الخصوم له في حياته. فحاربهم محاربة شديدة، وبذلك انفصل عن الفترة الابتدائية. وتطور رأيه في الحياة إلى تدين معتدل ، وقلل من استخدام القوة وبذلك هدأ الموقف العقدي الأصلي. وبعدما ترك (ابن سعود) بعض مؤيديه الذين كانوا حاجزاً له ، صار التطور إلى اعتقاد إسلامي متسامح عام ممكناً. هذه كانت الطريقة الوحيدة لتولي الحكم على بلد الإسلام المقدس الذي يتضمن (مكة) ، مركز الحج الإسلامي العالمي، تفادياً للاصطدام بالعالم الإسلامي. ولكنه فقد في الوقت نفسه الفرصة لتقديم الحل السلفي لمشكلات العالم الإسلامي [1].

كسب (ابن سعود) أثناء هذه الفترة من حياته عطف المسلمين في المجال السياسي ، وليس في المجال الديني. وزالت التوقعات خارج (الجزيرة العربية) لنهضة الإسلام. وقد تنشأ النهضة في الدول الإسلامية الجديدة مثل (الباكستان) أو (إندونيسيا)[2]. بالإضافة إلى ذلك قل الأمل في قيام التأثير العربي في حلول المسائل المتعلقة (بالشرق الأوسط) إلى حدٍ متدنٍ؛ نتيجة لكارثة جامعة الدول العربية خلال الحرب الفلسطينية.

انتقلت القاعدة الروحية لحياة (ابن سعود) إلى مرحلة من البساطة عندما بدأت الفترة الثالثة من حياته [3]. وتميزت هذه الفترة بالعلاقة مع (أمريكا) التي تطورت سريعاً إلى تعاون عميق ، وظهرت القوة غير الإسلامية الغربية في (الجزيرة العربية) إلى حدٍ غير متوقع.

---

(١) كان للدعوة السلفية التي انطلقت من المملكة أثرها الكبير في أنحاء العالم الإسلامي ، وهذه الدعوة ليست جديدة وإنما هي دعوة لتصحيح العقيدة والعودة إلى الأصول الإسلامية .

(٢) هنا يكرر المؤلف الإشارة إلى اعتقاده بضرورة امتداد تأثير الملك (عبدالعزيز) في كافة أنحاء العالم الإسلامي بشكل غير طبيعي ، متناسياً الظروف السياسية ، وقوى الاستعمار الأجنبية التي تقف عقبة كبيرة أمام حدوث الوحدة الإسلامية.

(١) يأتي تقسيم المؤلف لفترات حياة الملك (عبدالعزيز) هذه بناء على رأيه . ويعتقد أن هناك تغيراً حدث في قوة الدين، وسياسته . وهذا رأي يغاير الواقع ، حيث استمر الملك (عبدالعزيز) في الاعتماد على مبادئ الدين واعتبارها ركناً أساسياً في سياسته وحياته، إلى أن لقي ربه – رحمه الله.

هل كانت (أمريكا) مقبولة في هذا البلد؟ حتى بعد أن رفض كل التدخلات من قبل كافة الأطراف الغربية المسيحية، وأيضاً الأطراف الإسلامية (كتركيا)، وبشكل قاطع وعنيد؟ هل كانت (أمريكا) مقبولة؟ وإذا كانت الإجابة «نعم» فكيف تمّ هذا التغير تجاه الأجنبي؟ هل كان هذا التغير فعلياً وتاريخياً؟ وما هي النتيجة المؤقتة، وماذا قد نتوقع منه مستقبلاً؟[1].

جرتني هذه الأسئلة إلى (المملكة العربية السعودية) في شيخوخة الملك (ابن سعود). لا بد من إيجاد إجابة إذا أردت إكمال دراسة حياة (ابن سعود) بختام مرضٍ. ونرجع مرة أخيرة إلى (المملكة العربية السعودية) لمشاهدة أعمال (أمريكا)، وتقدير ردود الفعل من قبل حكومة (المملكة) وشعبها.

رأينا وسمعنا الكثير ،وشعرنا بأكثر، حيث إنّ الاحتمالات والتوقعات ملأت البلد بتوترات على الجانب السعودي والجانب الأمريكي على السواء.

من المهم أن بداية العلاقة كانت إيجابية جداً (لأمريكا)، حيث إنها استطاعت أن تبدأ بدعم فني عسكري، واستشارات، ومساعدات اقتصادية أثناء السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، قبل الحصول على أرباح كبيرة في (المملكة العربية السعودية). ومن المهم أيضاً للبداية الطيبة أن الملك (ابن سعود) شعر بحدسه بالمهارة الكبيرة للرئيس (روزفلت) في المجال الحكومي، وأن الرئيس الأمريكي بدوره شعر بالمواهب العبقرية (لابن سعود) بصفته رئيس شعب عجيب. وكل ذلك لا يشرح استمرار علاقة الثقة والصداقة بصفة خاصة، حيث إنّ الأمل العربي قد خاب بالنسبة إلى السياسة الأمريكية المتعلقة بالأمور العربية الإسلامية الحساسة. فالدعم الأمريكي للصهيونية في الأمم المتحدة بدأ حين أجازت تشكيل دولة (إسرائيل) عن طريق القوة. ولا تستطيع (إسرائيل)، حتى الآن أن تبقى كياناً اقتصادياً إلا

(٢) لم يكن للملك عبدالعزيز مواقف معارضة للأجانب أو للأتراك المسلمين. وإنما كان معياره الدين ومصالح البلاد، ولكن يبدو أن المؤلف استغرب نجاح الأمريكيين في أعمالهم في شركة الزيت شرق (المملكة)، وعدم اصطدامهم بالمجتمع ومبادئه. وهذا يعود إلى طبيعة أولئك الأمريكيين الذين تمكنوا من أداء أعمالهم دون التدخل في شؤون المجتمع أو الدولة على خلاف بعض السياسات الاستعمارية الأوروبية التي عرفها العالم العربي الإسلامي.

بموجب الدعم المالي من قبل الصهاينة الأمريكيين. ولا بد أن (ابن سعود) قد سأل نفسه مراراً هل سيختلف الوضع لو لم يكن صديقاً لرئيس (أمريكا)، وهل لم يف بالوعود الشخصية المقدمة أثناء مقابلتهما على متن الباخرة الحربية الأمريكية في (قناة السويس)؟[1].

استفادت (أمريكا) بدون قصد من نمو شعور المقاومة للبريطانيين في البلدان العربية. ولم يؤثر العطف القديم على (ألمانيا) في علاقة الصداقة (بأمريكا)، حيث إن (ألمانيا) قد انهزمت في الحرب العالمية الثانية، ولا يتوقع منها أي دعم للبلدان العربية في القريب العاجل. وكذلك وقوف (أمريكا) بلد (ويلسون)، الرئيس الذي جرؤ على دعم حق تقرير المصير للبلدان الصغيرة، وبعد تاريخ مسبق مفعم بالأمل وبعد توقعات كبيرة، وسط مشكلات الشرق الأوسط، وربما لا تنسحب (أمريكا) داخل حدودها. وبعد هذه الحرب تستعد لتحمل مسؤولياتها في العالم. ولم يكن الانطباع عن (أمريكا) في (جزيرة العرب) سيئاً.

كان الأمريكي بسيطاً وأميناً وحميماً وذا مرح طفولي بصفة عامة، ولم يعرف رأياً مسبقاً بالنسبة إلى العربي. ولما اتضح هذا الرأي المسبق مثلاً لدى الناس القادمين من (الولايات الأمريكية الجنوبية) أعلن مديرو (أرامكو) سياسة عدم قبول الآراء المسبقة في (المملكة العربية السعودية) تجاه السود أو الخلاسيين (ويوجد كثير منهم بالمملكة). استغرق تطبيق سياسة (أرامكو) هذه بصورة طيبة فترة معينة، ولكن لم يلحظ العرب ذلك، حيث إن قوانين البلد نصّت، في البداية، على فصل مواطنيه السعوديين عن الأمريكيين حماية للاعتقاد الديني. وبدأ الأمريكيون تاريخهم في (المملكة العربية السعودية) في جماعات بعيدة عن الشعب السعودي. وبهذه الطريقة استطاع كلا الطرفين أن يمر بفترة التعليم بدون جرح الشعور لأي طرف منهما. وتمّ استخدام فترة التعليم هذه بصورة طيبة خاصة على الجانب

---

(١) كانت سياسة الملك (عبدالعزيز) تجاه القضايا العربية والإسلامية، وخاصة قضية (فلسطين)، واضحة، وتدل على اهتمام كبير إلى درجة أنها أصبحت من أولويات سياسته الخارجية وحتى الداخلية. وعلاوة على الدعم العسكري والمادي والمعنوي فقد احتلت مواقف الملك (عبدالعزيز) تجاه القضية الفلسطينية حيزاً كبيراً من علاقاته الخارجية، واتصالاته السياسية والدبلوماسية.

الأمريكي ، وبموجب التوصيات المقدمة من قبل مستشرقين. وكانت شركة (أرامكو) محظوظة جداً بخبرائها في القطاع الاستشراقي. ونستطيع أن نقول ذلك ، حيث إننا تعرفنا على أهم شخصين فيه، وكانت بيننا علاقة طيبة لمدة عدة سنوات قبل أن يبدأا لدى (أرامكو). ولم تكن توصياتهما مبنية على معرفة عميقة (للملكة العربية السعودية) فقط ، ولكن كذلك على فهم سيكولوجي وإدراك عالم الشعور ، والآراء لهؤلاء العرب الذين يكونون طائفة ملتزمة بالإسلام. وفهم مديرو شركة الزيت قيمة توصياتهما ، وقبلوا بها ، حتى ولو كلفتهم أحياناً أموالاً كثيرة ، وكانت على عكس اتجاه المسيحية الغربية.

لم نذكر بعد العنصر الأهم المؤدي إلى التطور الإيجابي للتعاون الأمريكي العربي، وهو الفائدة المالية الكبيرة للجانبين. فقد فاقت ثروة الزيت في (المملكة العربية السعودية) كل التوقعات. كما أن استخراج الزيت من بلد صحراوي مسطح بدون غطاء نباتي تقريباً سهل جداً. فكانت عملية الاستخراج هنا أرخص وأبسط منها في أي مكان آخر. وليست الثقة والصداقة صعبة إذا استفاد المعنيون بهما إلى حد كبير ، شريطة ألا يكون المال وحده هو دافعهم.

لم يكن (ابن سعود) يهتم أبداً بالمال، إذ أعطاه الله النقود ، فأفاضها بدوره على الفقراء والضيوف ، ووهب أبناءه وآله كثيراً منها. ولم يكن له قدر كبير من المال في السابق ، فعاش هو وعائلته بدونه ، حيث إنهم كانوا متعودين على المعيشة الفقيرة، وحتى الجوع. وحتى رواتب منسوبي الدولة لم تكن تسدد – في بعض الأحيان – لمدة شهور ، وكان السعوديون يشعرون بالضيق والضنك، ولكنهم ينتظرون رحمة الله.

أظهرت شركة (أرامكو) كذلك أن المنطق يتحكم في السعي وراء الربح. واقترحت تقسيم الأرباح إلى خمسين في المائة ، حتى ولو لم يطلب الجانب السعودي ذلك. الآن نعرف ما حدث في البلدان المصدرة للزيت في (الشرق الأوسط) ، ونقدر أن نقول : إن المستشارين المسؤولين عن هذا الاقتراح فهموا التطورات في البلدان العربية، وكانوا محظوظين للإصرار على هذا

التقسيم ، الذي يعبر بوضوح عن الفكرة:« إننا طرفان متساويان ، ونسهم سواسيةً في الجهود والأرباح على السواء».

لا نريد أن نقول : إن هذه القسمة عادلة ، فخمسون في المائة تقسيم حسن فقط. لا بد من تعديلها مستقبلاً ، ولكنها برهنت على استعداد نفسي عند الطرفين للتعاون في اللحظة السيكولوجية المناسبة. كما أكدت تساوي الطرفين ، وعززت علاقة الثقة والصداقة بين الطرفين [1].

ومهما تكن أهمية الأرباح في ضوء العلاقات الإنسانية فهناك عامل آخر أهم من ذلك ، وهو علاقة الأمريكيين (بالمملكة العربية السعودية) ، وكان حاسماً لنجاح هذا التعاون العجيب. لا ننسى أن (أمريكا) ، التي ينظر العالم كله وبصفة خاصة (الشرق الأوسط) إليها بريبة ، مما يولد نفوراً طبعياً، ليس من الممكن أن تعطي (المملكة العربية السعودية) الضعيفة من الناحية المادية ثقتها الكاملة إلا لأنها بلد شرقي ذو حكم مركزي قوي. ويحمل (ابن سعود) هذا التعاون الجذاب والمفعم بالأمل. وعادة يؤدي هذا النوع من التجربة إلى خيبة أمل لطرف واحد أو لكلا الطرفين. ولكن الطرفين تمكنا من التعاون العجيب ، حيث إن (ابن سعود) كان رجلاً عجيباً. وإذا اختفى هذا الشريك في قصة الزيت الشعرية هذه (بالمملكة العربية السعودية) فسوف تفقد جزءاً من جاذبيتها. وحتى الآن يتحمل رجل واحد المسؤولية الكاملة على الجانب السعودي ، وليس هو فقط يظن أنه يستطيع أن يتحمل هذه المسؤولية ، بل كل مواطنيه يظنون الشيء نفسه لا أحد يشك في ذلك حتى الأمريكيين لا يشكون فيه، ولكنهم يرون أن التوازن بين الشريكين يختفي عند تقدم سن الملك أكثر فأكثر. ويفهمون أنه بداية فترة ، وسوف يظهر فقدان التوازن هذا على الجانب العربي أيضاً. وينظر المعنيون على الجانبين أن من المفروض أن يحدث شيء ولكنهم غير قادرين. كان باستطاعة الملك أن

(١) وهذا ما حدث بالفعل ، حيث امتلكت الحكومة السعودية كامل الشركة ، وأصبحت تحت سيطرتها الكاملة.

يتصرف بنفسه ، كما كان بإمكانه أن يتقاعد عندما كان الوقت مناسباً. دخل (ابن سعود) الآن فترة شيخوخته ، ويحتاج إلى قدرات أكبر لاتخاذ قرارات مهمة شخصياً. ما يزال يأتي منه سحر قوي إلى الحد الذي لا يستطيع أن يعمل ولي العهد ولا المستشارون شيئاً وذلك في فترة حاسمة [1]. كان بإمكانه دعم ولي عهده باستشاراته وتقوية نفوذه، لتقوية مقام ذلك الوريث عندما يسكن هو إلى الأبد.

نريد أن نختم هذا الفصل بمحاولة وصف (المملكة العربية السعودية) بعد فترة التعاون مع الأمريكيين التي تبلغ عشر سنوات تقريباً ، وتعدي الملك عمر الأقوياء بكثير. ونحاول تقديم تشخيص لوضع البلد والشعب عند مروره إلى فترة جديدة في تاريخه.

- المملكة العربية السعودية وعلاقتها بالعقيدة السلفية :

لم يبق من النهضة الدينية الثانية ، ومن الاعتقاد بأن حلول المشكلات الحكومية والاجتماعية التي كانت معروفة من ناحية المبدأ - إلا الذكرى لها . إن هذه الذكرى تطلب الاحترام للاعتقاد ، حيث إنه أدى إلى إنجاز أعمال كبيرة . انقضت الحركة أو على الأقل هي على وشك الانقضاء [2]. لا يحب الناس أن يسمونهم وهابيين[3]. اتضح ذلك لنا كثيراً فعندما سألنا

---

(١) رؤية المؤلف هنا للحالة التي كان عليها الملك (عبدالعزيز) غير صحيحة ، فقد كان يدير شؤون الدولة بإحكام ، ويعتمد على أبنائه والمسؤولين من المواطنين وغيرهم ، وعلى عكس ما رآه المؤلف ، فقد كان الملك (عبدالعزيز) ومنذ فترة مبكرة ، يعطي أبناءه الفرص الكبرى لتسيير أمور الدولة ، ويعتمد عليهم ، إضافة إلى سياسته المعتمدة على الشورى .

٢) هذا الرأي مخالف للواقع فالدين الإسلامي الصحيح ما زال منتشراً في كافة أرجاء هذه البلاد ، وسيبقى - بمشيئة الله - إلى قيام الساعة .

(٣) يعود المؤلف هنا إلى تخيله الذي وضعه عن الوضع الديني في (المملكة العربية السعودية) والحركة الدينية ، وما كان يعتقده عما أسماه (بالوهابية) ، لذا يرى أن التقدم أنهى (الوهابية) ، ثم ربط المؤلف ذلك برفض الناس تسميتهم (بالوهابيين) ، وهذا شيء كان منذ البداية وإلى اليوم لأن اسم (الوهابية) ليس صحيحاً ، وإنما أثير ، وأطلق على المسلمين في (المملكة) ، لأسباب سياسية وفكرية ضد المناصرين للدعوة الإصلاحية التجديدية

الناس: « هل أنت وهابي؟» مهما يكن السؤال موجهاً إلى شخص واحد أو مجموعة من الناس، فكانت الإجابة مشابهة دائماً: « نحن مسلمون!» لم يدع الناس بعد إلى التصرفات والآراء التي اختص السلفيون بها ، ولم تفرض الدعوة السلفية على الناس بعد، ويتصرف بعض الناس تصرفاً مشابهاً فقط. وزال تحريم التدخين حتى في الدوائر العليا. ويقبل المرء صامتاً أن يدخن طالما كان يظهر ضبط النفس والتقوى إلى حد ما ، وطالما لا يتم التدخين علناً. من المفضل ألا يدخن الأجنبي في الأماكن المعروفة محافظة على القيم الموروثة.

في البداية كان للمسجد شكله الخاص ، إذ لم تكن له مئذنة، وإنّما يُنادى للصلاة من مكان مرتفع مفتوح على أحد حيطانه ، كما هو حال المساجد المبنية خلال حكم (الرسول) في المدينة. كما كان للمسجد منبر كبير يُصعد إليه بسلم مستقيم مفتوح. وكان فن العمارة النجدية والمساجد جدياً، خالياً من التجميلات، إلا من بعض النماذج الهندسية المناسبة للجدية الوقورة الخاصة بالمقاومين لعبادة الأصنام. وما زالت المساجد على الشكل القديم ، وهي جميلة في بساطتها ، وتبنى من القرميد الطيني المجفف في الشمس - في ضواحي (الرياض) وفي القرى والواحات. وتمّ هدم «المسجد الكبير» الجميل المبني من الطين في (الرياض) القديمة لبناء مسجد حديث من الأسمنت والحجر الطبيعي في مكانه ، وأقيمت عليه المآذن العالية. وزود بكثير من الأضواء الكهربائية الملونة ومكبرات الصوت الكهربائية. وبذلك أصبح المسجد الكبير للبلد مثالاً لمغادرة الصيغة القديمة لسلطة (المملكة العربية السعودية) المعاصرة وشعبها على السواء. وليس هذا هو التغيير الأول للمبدأ الذي أنشأ المسجد القديم النجدي وحافظ عليه. وأخذ ولي العهد الخطوة الأولى عندما بنى بجانب قصره الجديد، خارج العاصمة، مسجداً كبيراً ذا مئذنة ملونة عالية، تزينها نماذج إسمنتية تلمع ليلاً كمنارة ملونة. وينادى إلى الصلاة عبر مكبرات الصوت الكهربائية فوق حدائق القصر والصحراء حوله. ويلمع عدد من الأضواء الإضافية في أمسيات أيام الجمعة ، ويذهب سكان (الرياض) إلى القصر لمشاهدة منظر مدهش للقلب البدوي البريء، وهذا لا يرضي

عالماً سلفياً أبداً. ولن يفرح رجل مثل (محمد بن عبدالوهاب) لو كان بإمكانه مشاهدة ذلك المسجد الجميل في الزمن الجديد [1].

كان من الممكن أن يلتقي أحدنا في شوارع (الرياض) وفي بعض الأماكن الأخرى (بالمملكة) بالرجال الذين يرفدون العقال الأبيض حول صمادتهم مما يشير إلى أنهم ينتمون إلى الإخوان. ألفت ملامحهم الجدية النظر، خاصة عندما يقابلون الأجنبي ، ولكن تتخفض فرصة مقابلتهم أكثر فأكثر ، ولا يبقى إلا عدد قليل منهم ، وذلك في أماكن غير مطروقة انقضى زمنهم المجيد ، ولم يبق من فخرهم إلا ما علق بالذاكرة. وانزلق مقامهم وسط الشعب إلى الخلف ، ولم يؤثروا في سير الأمور بعد، عندما سقطت الحواجز حول بلدهم ودخل الأجانب من الغرب بقوتهم في شكل المال والآلات[2].

لم تستطع الحركة الوهابية الثانية أن تعود إلى مصدرها ، حيث إن (الرياض) نفسها تستسلم. واستحالت العودة إلى الصحاري المتعذر بلوغها أيضاً[3]، حيث إنها أصبحت مواقع لعمليات الزيت. وعند اختفاء الإخوان انتهت فترة مثيرة من مسرحية العربية الصحراوية القديمة جداً.

---

(١) ينظر المؤلف هنا أيضاً إلى أن التغير الذي حدث في بناء المساجد هو دلالة على ضعف الدين ، وهذا خطأ واضح نتيجة للتخيل الذي وقع فيه المؤلف ، وذلك لأن الدين الإسلامي لا يمنع تطوير بناء المساجد ، واستخدام التقنية ، وما يؤدي إلى تحسين أي وسائل مادية طالما أنها لا تتصل بتغيير في العقيدة . لذا ما حدث هو أمر ضروري لمواكبة التطور العمران ، وتحسين المباني وغيرها .

(٢) أيضاً هذا أمر عادي الحدوث عندما تتقدم المدينة ، وتتسع مجالات الحياة والتطور ، في حجم المدينة ، وزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة ، وتقدم وسائل الاتصال ، وغيرها . والمؤلف هنا يقارن بين فترتين ، ويحكم عليهما من واقع خياله ، وربط ذلك برأيه الذي يحاول أن يؤكد عليه وهو ضعف الدين .

(٣) لم تكن الصحاري كلها مواقع لعمليات البحث عن الزيت ، بل كانت محصورة ومحدودة في أجزاء من (المنطقة الشرقية)، وهذا يدل على أن المؤلف ، استمر في تخيله ، وأخذ في وضع الأرضية الفكرية المناسبة لها .

أتيحت لنا الفرصة أن نلتقي به مرة أخرى في الجزء القديم من قصره المربع الذي بناه ليكون حصناً داخل الحيطان الطينية، له أكثر من ٢٠ برجاً للدفاع [1]، يبعد بعض الكيلومترات عن (الرياض). وبعد بضع سنوات أقنعه وزيره للشؤون المالية وأبناؤه بإنشاء قصر سكني حديث مزود بمصاعد ومرافق غربية أخرى. لكنه مايزال يحكم في البيئة القديمة ، وبالأسلوب القديم. وهناك السكرتير الذي قابلناه منذ سبع سنوات في هذا المكان، المستشار للشؤون الخارجية لم يتغير، ورجال الحراسة من نبلاء شعبه البدوي. وقد انخفض عدد السود الذين كانوا عبيداً للملك. يمكن أن نقول إن الحراس البدو كانوا ينظرون نظرة استهجان إلى الأجانب الذين سوف يشدون انتباه ملكهم. جلسوا كلهم القرفصاء يحملون الجراب المزين بالذهب والفضة ، وفيه السيف الذي استخدم شعاراً للدولة. ووقف عند مدخل صالة الاستقبالات بعض الضباط الذين يسلمون علينا بالطريقة العسكرية. ووقف بعض الشيوخ البدو هناك أيضاً ، ولكنهم لو سلموا علينا لسلموا بالطريقة الشرقية المسهبة. وهم يكوِّنون الخلفية التقليدية للأماكن الخاصة باستقبالات الملك مرتدين عباءاتهم البنية الجميلة ذات الحواشي الرقيقة المزينة بالخيوط الذهبية. وكان الملك يجلس على الجانب البعيد للصالة. ولم يقم الملك عندما اقتربنا منه؛ ليسلم علينا كما تعود أن يفعل، وينهض معه كل البدو الحاضرين. إذ بقي الملك جالساً ، وهم جالسون أيضاً. إنَّ (عبدالعزيز بن سعود)، الرجل الذي كان ملكاً مهيباً قوي البنية، يجلس الآن في عربة متحركة قدمها له الرئيس (روزفلت). إن لحيته الرقيقة وشعر رأسه الظاهر القليل منه تحت غترته أسود ، لكنّه مصبوغ. إن يديه النحيلتين اللتين كانتا عنيفتين ، أصبحتا الآن متيبستين ومتجعدتين ، والوجه متغضن ، وتبدو العين الوحيدة الصحيحة ضعيفة مثل العين التي كانت مريضة. ومايزال الصوت مؤثراً ، وإن فقد من نبراته الأولى الكثير ، ولا يرتفع صوته عند توجيهه إلى الحاضرين من شعبه فوق وجوه الضيوف لمتابعة سير تفكيره أو توضيح وجهة نظره. وهذا كان مميزاً لكل استقبال وكان جزءاً متكاملاً منه ، والجزء المهم فعلاً. هذه المرة لا يوجد كثير من الأسباب للتعليق من قبل

(١) وصف المؤلف أبراج قصر المربع على أنها للدفاع ، وهذا النمط من العمران سائد في بلدان نجد وسمة من سمات مبانيها، وليست بالضرورة للدفاع كما وصفها .

الملك. وتم استقبال بعض الأمريكيين الكبار من شركة الزيت أثناء حضورنا. ولا يتكلم الأمريكي لغة الملك، ولذلك جاء معه مترجم يجلس بقرب الملك. وكان الأمريكي يتكلم كثيراً وسريعاً. والملك يرد عليه رداً مناسباً وبرفق وبسخرية خفيفة أحياناً؛ لأنه كان مريضاً. ويستمر هذا النوع من المقابلات من زمن طويل ، ولكنه تكلم مع الأجانب مراراً عن المواضيع التي اهتم بها أكثر، وكان الزيت هو الختام. لم يركز على خطة حياته، والعمل الكبير الذي حققه بالوحدة بعون (الله). ولما جاء الزيت والأمريكيون العاملون فيه بدأ كل شيء، يتغير ، لم يكن هؤلاء الغربيون معقدين مثل البريطانيين. وكان غريباً أنهم بقوا في المجال الخاص بهم، مجال الزيت والتقنية. ولحظ أنه نشأت مشكلات جديدة وغير متوقعة ، ولكنها كانت خارج النطاق الذي عرفه وتحكم فيه، ولا يريد أن يفكر فيها. وعلى أبنائه أن يفكروا في ذلك فيما بعد. ولم يعبر الملك عن أفكاره، وكان يرد على ضيوفه ودياً. تركنا الملك هذه المرة بدون أن نسمع شيئاً جديداً أو أمراً مبدعاً في نطاق دين الإسلام أو نطاق السياسة العربية. وعلّم ضيفه الأمريكي درساً صغيراً فقط عندما قطع حكاية الأمريكي الطويلة عما تعلم من مرضه الجدي الأول بالملاحظة الحادة: « لو كنت مسلماً لعرفت ذلك بدون أن تمرض» [1].

خرجنا من صالة استقبالات لم تعد تشكل اللوحة الناصعة لحاكم يقود ويهذب شعبه، فقد اقترب من نهايته ، وأصبح ينتظر تلك اللحظة ، حيث إنه ليس من الممكن أن تبدأ الفترة الجديدة قبل ذلك. وسوف تبدأ الفترة الجديدة من قصر آخر في الناصرية ، حيث يسكن ولي العهد الآن.

---

(١) يأتي وصف المؤلف هنا لمقابلته الملك (عبدالعزيز) وهو في أواخر حياته رحمه الله ، حيث كان يعاني من المرض والتعب، ويشير المؤلف إلى مقارنته بما كان يعرفه عن قوة الملك وشخصيته سابقاً.

الفهارس

قائمة الصور

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس المحتويات

الإخراج و التنفيذ الطباعي
مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة - الرياض - هاتف: ٤٧٦١٥٥١ - فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧

هذا الكتاب

أبدى الكثير من الدبلوماسيين والشخصيات البارزة إعجابهم وتقديرهم لشخصية الملك عبد العزيز وسياسته المتزنة. ومن هؤلاء مؤلّف هذا الكتاب د. ف. د. مولين الذي أشاد بدور المؤسس ـ رحمه الله ـ في بناء الدولة السعودية الحديثة، فبسط الأمن، ووحد الصف، وطوّر بلاده وجعلها تتكيف مع الوسائل الحديثة دون الإخلال بمبادئها أو منهجها. كما يتناول المؤلّف مواقف الملك عبد العزيز تجاه القضية الفلسطينية التي استأثرت باهتمامه وعنايته.

رقم الردمك: ٧-١٤-٦٩٣-٩٩٦٠
ISBN: 9960-693-14-7
9 789960 693147